تدبُّر
قرآن يمشي لإنسانية ترقى

سلسلة فقه القدوم على الله

قصة رحلة الخلود

الكتاب الثاني

إنها الساعة

تلقي السعادة والإكرام الأعظم

الأستاذ الدكتور
عبد السلام مقبل المجيدي
أستاذ الدراسات القرآنية/ كلية الشريعة/ جامعة قطر

الطبعة الخامسة
١٤٤٦ هـ - ٢٠٢٥ م

بصائر المعرفة القرآنية

٢٥

السلسبيل المورود

قصة رحلة الخلود

الكتاب الثاني

إنها الساعة

تلقي السعادة والإكرام الأعظم

الأستاذ الدكتور

عبد السلام مقبل المجيدي

السلسلة المورود

قصة رحلة الخلود

الكتاب الثاني

إنها الساعة تلقي السعادة والإكرام الأعظم

تأليف

الأستاذ الدكتور

عبد السلام مقبل المجيدي

مراجعة

القسم العلمي في مؤسسة بصائر المعرفة القرآنية

تصميم الكتاب

محمد عبدالحميد عبدالله الزبيدي

moh.ab.ad1071@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

ويجوز نشر الكتاب بعد أخذ الإذن من المؤلف

رقم الإيداع القطري ٢٠٢٥/٢٧٧ - الترقيم الدولي: ٩٧٨٩٩٢٧١٧٨٣٤٤

الطبعة الخامسة

١٤٤٦ هـ - ٢٠٢٥ م

إنَّها السَّــاعـة....

يا أصحاب الأفراح:

تتلقَّاكم الملائكة

تهنئكم وتعانقكم بحبٍّ وانشراح..

تقول لكم:

«هذا يومكم الذي كنتم توعدون»

مُقَدِّمَة

الحمد لله قرة عيون الموحدين، وقبلة وجوه العابدين، ومعقد رجاء السائلين، سبحانه كتب السعادة لأهل محبته، والفلاح لسالكي سبيل طاعته، والصلاة والسلام على البشير النذير والقمر المنير، سيدنا محمد وعلى آله وصحابته أهل الجدِّ والتشمير في مراضي اللطيف الخبير.

إنها الساعة
(تَلقِّي السعادة والإكرام الأعظم)

◆ هذا الكتاب الثاني من سلسلة (رحلة الخلود) التي قد صدر منها الكتاب الأول تحت عنوان: «أفراح بين السماء والأرض إلى الرفيق الأعلى الأسعد».. هذا الكتاب جاء وصلًا لما سبقه، وعرضًا لمشاهد القيامة، ووقوفًا على حال صاحبنا الشاب المخبت الأوَّاب الذي رافقناه في انتقاله من الحياة، وخروج روحه من جسده، ثم رحلته ومقامه في الحياة البرزخية.

◆ وهذا الكتاب (الثاني) أفردناه للتعرف على حاله، والوقوف على مآله، عند قدوم الساعة وحلول أحداثها ووقائعها، وقد اخترنا أن نعنون هذا الكتاب بـ «إنها الساعة»، وتضمن ستة مشاهد كالآتي:

◆ المشهد الأول: استفق! إنه يوم الفزع الأكبر.

- المشهد الثاني: يا رب أرحني.. فتشرق الأرض بنور ربها.
- المشهد الثالث: وُضِعَ الكتاب، وبدأ الحساب.
- المشهد الرابع: أَسْبِلِ الدَّمع الهطَّال، وأنت تشاهد صور الحساب في يوم شديد الأثقال.
- المشهد الخامس: إنه العبور الخطير على جسر جهنَّم.. هل أعددت مركبتك القويَّة لتتمكَّن من الانتقال عليها؟
- المشهد السادس: نورك البهيُّ يسعى.. والحصاد المُرُّ لمن نكث وأكدى.

فإليك هذه المحطَّات التي سينزل فيها حِبُّنا الشاب القانت (عبد الله)، ونقِّلْ فؤادك في أحواله السنية، وعاقبته الرضية، جزاء وفاقًا لصلاح حاله في هذه الدار، وسلوكه في زمرة الخيرة الأبرار.

- **فيا حبيباه!** تعال ننظر في تلك المشاهد، عسى أن ترجع إلى نفسك، وبها وفيها تجاهد.
- **أيها الحبيب:** لا تنسَ، وحاسب نفسك في خلوتك وجَلوتك، وتفكر في انقراض زمنك ومدتك، واعمل في زمان فراغك لوقت شغلك وشدتك، وتدبر قبل الفعل ما يملى في صحيفتك، وانظر: هل نفسك معك أو عليك في مجاهدتك[1].

اللهم اسلك بنا سبيل أهل مودتك وقربك، واجعلنا ممن فاز بالفردوس في أعالي جنتك.

---

(١) مواعظ ابن الجوزي، ص ٨٣.

إنها الساعة
تلقي السعادة والإكرام الأعظم

المشهد الأول

استفق! إنه يوم الفزع الأكبر..

أيا صاحب القلب المنيب:

«هذا يومكم الذي كنتم توعدون»

أمطارٌ لا تنبت البذور والأشجار بل تنبتُ الأجساد وتعيد الأعمار:

مضت الأيام، وانقضت الآجال وفق ما قَدَّرَ الله ﷻ للدنيا أن تعمر، ثم تمضي وتندثر.. وفي لحظةٍ من لحظات المستقبل، وأجلٍ مسمًّى في علم الله ﷻ من الزمن القادم.. لو أطللتَ على واقع المدفونين في قبورهم، ونظرت إلى المقبورين في أجداثهم.. لرأيتَ جثثًا هامدة.. أكثر البشر قد بَلِيَ، وصارت عظامه نخرة.. فَنِيَتْ عظامه كلُّها، واستحالت ترابًا.. فـ«ليس من الإنسان شيءٌ إلا يبلى إلا عظمًا واحدًا وهو عَجْبُ الذنب»[1]، و«كلُّ ابن آدم يأكله التراب إلا عَجْبَ الذنب»[2].

فهذه العظمة الوحيدة الصغيرة التي تكون في أسفل عموده الفقري هي التي تبقى في التراب.. كالبذرة.. وفي لحظةٍ من اللحظات التي يعلمها الله ﷻ.. حيث يكون جسد

(١) البخاري (٤٩٣٥)، مسلم (٢٩٥٥).

(٢) مسلم (٢٩٥٥).

الإنسان قد انتهى إلا هذه البذرة الصغيرة التي لا ترى بالعين المجردة بسهولة.. في لحظةٍ مسمَّاة «يُنْزِلُ الله من السَّماء ماءً»(١) «مطرًا كأنه الطَّلُّ أو الظِّلُّ»(٢)..وهو ماءٌ غليظٌ «كَمَنِيِّ الرِّجَالِ»(٣)..

الآن اشهد الوعد الحق في إعادة تركيب وبناء الخلق؛ إذ ينزله الله ﷻ على هذه البذرة الصغيرة في التراب.. عظمة عَجْب الذنب «فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ [لُحْمَانُهُمْ وَجُثْمَانُهُمْ]».. تابِعِ الجسد وهو ينمو شيئًا فشيئًا حتى يتم نموه ويتكامل.. انظر إليه ينبت نباتًا كما تنبت أشجار الأرض.. «فينبتون كما ينبت البَقْل».. انظر إلى أجسادهم وجثمانهم قد نمتْ، ودبَّت فيها الحياة.. فمن تلك البذرة الصغيرة، ومن ذلك المطر «يركب الخلق يوم القيامة».. ومنادي الحق ينادي:

﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

لما ذكر عبد الله بن مسعود ﷺ إعادة تركيب الجسد من ذلك الماء وتلك البذرة قرأ:

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾

[فاطر: ٩]

أجل!.. كما تنبت الأرض من المطر والبذور.. كذلك النشور.

---

(١) مسلم (٢٩٥٥).

(٢) مسلم (٢٩٤٠)، قال النووي في شرح مسلم (١٨/ ٧٧): «قَالَ الْعُلَمَاءُ: الْأَصَحُّ الطَّلُّ بِالْمُهْمَلَةِ، وَهُوَ الْمُوَافِقُ لِلْحَدِيثِ الْآخَرِ: أَنَّهُ كَمَنِيِّ الرِّجَالِ».

(٣) الحاكم (٨٥١٩)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

هذا كان شأن الجسد.. قد عاد الجسد كما كان.. وبقيت الروح.. لم تعد إليهم.. فتابع مسيرتها..

نفخةٌ واحدة.. لتعود الأرواح إلى الأبدان، وتخرج من أجداثها صاعدة:

في تسارعٍ شديدٍ للأحداث انتقِل إلى عالم الحقائق لترى إسرافيل عليه السلام صاحب القرن يضع الصور على فيه شاخصًا «بصره إلى العرش.. ينتظر متى يؤمر أن ينفخ في الصُّوْر فينفخ»[(١)].. بل «إن طرف صاحب الصُّوْر مذ وُكِّلَ به مستعدٌ ينظر نحو العرش، مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طرفه، كأن عينيه كوكبان دُرِّيَّان»[(٢)]..

إنها ساعة النفخ في الصُّوْر وهي ساعةٌ ينتظرها الجميع رغبًا ورهبًا.. ولكنها أشد رهبةً على القلوب الحساسة المؤمنة حتى وصفها سيد المخبتين، وإمام الخاشعين ﷺ بقوله:

> «كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن، وحنى جبهته، وأصغى سمعه ينتظر متى يؤمر أن ينفخ»..

(١) مسند إسحاق بن راهويه (١٠)، ورواه ابن كثير بسنده مِنْ طَرِيقِ الْحَافِظِ الطَّبَرَانِيِّ، فِي كِتَابِهِ «الطِّوَالَاتُ، ثم قال بعد أن ساقه بطوله: «هَذَا حَدِيثٌ مَشْهُورٌ، وَهُوَ غَرِيبٌ جِدًّا، وَلِبَعْضِهِ شَوَاهِدُ فِي الْأَحَادِيثِ الْمُتَفَرِّقَةِ بَعْضِ أَلْفَاظِهِ نَكَارَةٌ، تَفَرَّدَ بِهِ إِسْمَاعِيلُ بْنُ رَافِعٍ قَاصُّ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَقَدِ اخْتُلِفَ فِيهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ وَثَّقَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ ضَعَّفَهُ، وَنَصَّ عَلَى نَكَارَةِ حَدِيثِهِ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ... وَقَدِ اخْتُلِفَ عَلَيْهِ فِي إِسْنَادِ هَذَا الْحَدِيثِ عَلَى وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ، قَدْ أَفْرَدْتُهَا فِي جُزْءٍ عَلَى حِدَةٍ. وَأَمَّا سِيَاقُهُ، فَغَرِيبٌ جِدًّا، وَيُقَالُ: إِنَّهُ جَمَعَهُ مِنْ أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ، وَجَعَلَهُ سِيَاقًا وَاحِدًا، فَأُنْكِرَ عَلَيْهِ بِسَبَبِ ذَلِكَ». تفسير ابن كثير ٣/ ٢٨٢-٢٨٨.

(٢) الحاكم (٨٦٧٦)، وصححه ووافقه الذهبي، وحسَّنه ابن حجر في «الفتح» ١١/ ٣٦٨.

تلهف الصحابة من الوصف فدعاهم هذا إلى سؤال المخبتين فقالوا: يا رسول الله! فما نقول؟ قال:

قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل.. على الله ربنا توكلنا»[1]..

أجل يا رسول الله! شغلتنا الدنيا عن كلمة النجاة: حسبنا الله ونعم الوكيل.. على الله ربنا توكلنا.

وعندما يقوم «مَلَكُ الصُّورِ بين السَّماء والأرض» بالنفخ فيه تنطلق «كلُّ نفسٍ إلى جسدها حتى تدخل فيه، ثم يقومون فيحيون حياة رجلٍ واحدٍ قيامًا لله رب العالمين»[2].

في لحظةٍ محددةٍ وميقاتٍ معلومٍ أَمَرَهُ الله ﷻ بالنفخ في الصور.. فنفخ.. فعادت كلُّ روحٍ إلى جسدها..﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾ [التكوير: ٧].

ماذا حدث؟!

لقد ﴿نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨﴾ [المدثر: ٨]..نعم! نفخ في الصور النفخة الأخيرة..

وهكذا تكامل الخلق في الجسد والروح وعاد خلقًا جديدًا..

﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝١٠٤﴾ [الأنبياء: ١٠٤]..

(١) الترمذي (٣٢٤٣)، وحسنه، وأحمد (١١٠٣٩)، وقال محققو المسند: «حديث صحيح، وهذا إسناد ضعيف؛ لضعف عطية العوفي وهو ابن سعد العَوْفي، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين».

(٢) الحاكم (٨٥١٩)، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.، وفي نسخة الرسالة العالمية (٨٧٢٩)، والمنهاج القويم (٨٧٦٩): «ثُمَّ يَقُومُونَ فَيُحَيُّونَ تَحِيَّةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ قِيَامًا لِرَبِّ الْعَالَمِينَ».

ولكنهم ما زالوا داخل الأرض في أجداثهم وقبورهم.. فكيف سيَخْرُجون؟! بل كيف سيُخْرَجون؟!

انظر إليهم يخرجون من الأجداث.. أخرجت الأرض أثقالها:

◆ مع نفخة الصُّوْر العظيمة تبدأ الأرض بالتزلزل.. فتهتز، وتميد وتضطرب.. وترتج ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾ [الزلزلة: ١]، ثم تُمَدُّ ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣﴾ [الانشقاق: ٣]، انظر إليها.. وهي تُمَدُّ وتضطرب وتهتز.. ثم ما تلبث أن تُخْرِجَ أثقالها ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾ [الزلزلة: ٢].. تخرج كل نفسٍ من قبرها، وتنظر في حقيقة أمرها، ثم تنظر إلى الأرض، وهي تهتز وتخرج من باطنها على صورةٍ مدهشةٍ أحمالَها، ﴿وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ۝٣﴾ [الزلزلة: ٣].. لقد رَمَتِ الأرض كلَّ ما فيها من بشرٍ وجوهر.. أخرجت أثقالها، ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤﴾ [الانشقاق: ٤]، لقد ألقتهم خارجًا، وتخلت عنهم فلم تقبل بقاءهم في جوفها.. وهكذا نبتوا من الأرض نباتًا، وأخرجوا منها إخراجًا.

فليخشع قلبك، ولتحنِ رأسك خضوعًا.. ثم اتل بتصديقٍ كاملٍ قول الملك الكبير تلذُّذًا وخشوعًا:

﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨﴾

[نوح: ١٧، ١٨]

خرجوا جميعًا، وخلال لحظاتٍ يسيرة رأيتهم بعد أن قذفتهم الأرض ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾ [الزمر: ٦٨]، فإذا جميع الخلق قيامٌ ينظرون إلى هول المشهد

أمامهم مبهوتين، وإلى ما بين أيديهم مترقبين.. أحياءٌ بعدما كانوا عظامًا ورفاتًا.. صاروا أحياءً ينظرون إلى أنفسهم وقد خرجوا حفاةً عراةً غُرْلًا بُهْمًا.. كما كانت خِلْقَتُهم أول مرة.. ولما عجبت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قائلة سائلة: يا رسول الله، النساء والرجال جميعًا، ينظر بعضهم إلى بعض؟! رد عليها الحبيب ﷺ: «يا عائشة، الأمر أشدُّ من أن ينظر بعضهم إلى بعض»[1].. إيه إنه لأشدُّ من ذلك بحيث لا يلتفت الواحد مجرد التفاتة لهول المشهد وعظم وطأته.. لقد استشعر الصحب الكرام هول ذاكم المشهد، وقدَّروه حق قدره، حتى قال الفاروق عمر رضي الله عنه تدبُّرًا في علانيته وسرِّه:

«والله الذي لا إله غيره، لو أن لي ما على الأرض من صفراء وبيضاء لافتديت به من هول المطلع»[2].

ينقر في الناقور ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨]، وهم أمام أهوال يوم القيامة خائفون قلقون.. فاشهد هناك معهم هول يوم القيامة، وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة، والآلام والندامة..

وهكذا.. مجرد صيحةٍ واحدةٍ من الصور بقدرة الجبار -عزَّ جاره- ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس: ٥١].. صيحةٌ واحدة زجرتهم وأزعجتهم من

(١) مسلم (٢٨٥٩).

(٢) الحاكم (٤٥١٥)، وحسن إسناد هذا الحديث الحافظ المنذري في "الترغيب والترهيب" (٤/ ٢٥٧)، والهيثمي في "المجمع" (١٠/ ٢٠٣)، وقال شعيب الأرناؤوط: حسن لغيره.

قبورهم لتراهم قد خرجوا ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات:١٤]..

كَمَا بَدَا خَلْقَهُم رَبِّي يُعِيدُهُمُ ... سُبْحَانَ مَنْ أَنْشَأَ الأَرْوَاحَ وَالصُّوَرَا

حَتَّى إِذَا مَا دَعَا لِلْجَمْعِ صَارِخُهُ ... وَكُلُّ مَيْتٍ مِنَ الأَمْوَاتِ قَدْ نُشِرَا

قَالَ الإِلَهُ: قِفُوهُم لِلسُّؤَالِ لِكَيْ ... يَقْتَصَّ مَظْلُومُهُم مِمَّنْ لَهُ قَهَرَا[1]

◆ أَفِقْ أيها الحبيب:

لقد دعاهم الله للقيام فاستجابوا ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٥٢]، وعندها ظنوا إن لبثوا ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٣] ، نعم إنها دعوةٌ من الحيِّ القيوم العلي العظيم... دعوةٌ لهم ليخرجوا ﴿مِّنَ الْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٥]، فإذا هم قيام لله رب العالمين.

إنه اليوم الذي تشقق الأرض عنهم فيخرجون منها سراعًا، وأول من تنشق الأرض عنه نبينا محمد ﷺ..

صيحات الفزع من الخارجين..﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾﴾ [القيامة: ١١] حنانيك يا يومَ الخائفين:

◆ انظر إليهم.. وأكمل مشاهد الحق:

وهكذا جاء يوم التلاقي، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة.. نقر في الناقور، ونفخ إسرافيل عليه السلام في الصور.. نفخةً قام فيها الناس لله رب العالمين.. قام الناس فزعين مرعوبين بعد أن قذفتهم الأرض خارجها.. استيقظوا على واقع جديد مفاجئٍ لم

(١) الأبيات لابن مشرف. ينظر ديوانه، ص: ٣٥.

يشهدوه، وفتحوا أعينهم على مشهد مهولٍ لم يعهدوه.. ولما خرجوا وعاينوا أنهم قد أعيدوا نشأة أخرى

﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس:٥١]..

عندها صاح الظالمون منهم، وهم فزعون وجلون:

﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس:٥٢]..

ومنادي الحق ينادي:

﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [يس: ٥٢]..

اليوم يوم تتجلى الحقائق.. اليوم يوم الوعد الصادق.. اليوم يوم ظهور الجرائر والبوائق.

..ورأيتَ هناك كثيرًا من الخارجين من أجداثهم.. خشعًا أبصارهم، واجفة قلوبهم.. يخرجون من الأجداث.. كأنهم من كثرتهم جرادٌ منتشر.. انظر إليهم.. إنهم أمامك: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٨].. مسرعين إلى الداعي الذي دعاهم للقيام لرب العالمين من أجداثهم.. وهم يعلمون إلى أين يتوجهون.. ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [المعارج: ٤٣].. كأنهم إلى شيءٍ منصوبٍ معلوم يوفضون.. يسرعون إليه.. فهل يبقى منهم أحدٌ يتخلف عن موعد الحشر ومكانه.. حينها نادى الذين لم يكونوا يؤمنون بالساعة ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾﴾ [القيامة:١٠]..هل يمكن أن يكون هناك من يمكنه أن يهرب من المحشر؟!

فَيَـا إِلَهِـي وَمُـزْنُ الجُـودِ وَاكِفَةٌ ... سَـحًّا فَتُمْطِرُنَا الإِفْضَالَ وَالْمِنَنَا

آنِسْ هُنَالِـكَ يَا رَحْمَنُ وَحْشَـتَنَا ... وَالْطُفْ بِنَا وَتَرَفَّـقْ عِنْدَ ذَاكَ بِنَا

نَحْـنُ الْعُصَاةُ وَأَنْـتَ اللهُ مَلْجَؤنَا ... وَأَنْتَ مَقْصَدُنَا الأَسْنَى وَمَطْلَبُنَا

فَكُنْ لَنَـا عِنْدَ بَأْسَـاهَا وَشِـدَّتِهَا ... أَوْلَى فَمَنْ ذَا الَّـذِي فِيهَا يَكُونُ لَنَا[1]

كلا! ﴿لَا وَزَرَ ﴿١١﴾﴾ [القيامة:١١]، لا ملجأ يمكن أن يلجؤوا إليه، ولا مهرب يمكن التخفي فيه! ومنادي الحق ينادي:

﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾ [الكهف: ٤٧]..

حشروا! لم يترك واحد منهم.. حشروا من أرجاء الأرض المعمورة.. فلا مهرب في صحراء أو سماء أو بحر أو مقصورة.. إن الله العظيم الكبير حشرهم جميعًا.. يقول لهم:

﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾ [البقرة: ١٤٨].

عندها سمعتِ الخلائقُ الأمر الإلهي العظيم: ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات: ٢٤]

حينها قال الكافرون جملة الخوف الخالد، والرعب المقيم: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر: ٨]، وهنا يتذكرون، فيا ليت نفعهم في دنياهم من تفكر وادَّكر، فمن عَلِمَ عظمةَ ربِّه زاد وجلُه، ومن خاف نِقَمَ ربِّه حسن عملُه، فالخوف يستخرجُ داءَ البطالة ويشفيه،

(١) العاقبة في ذكر الموت، لابن الخراط، ص: ١٨٨.

وهو نعم المؤدب للمؤمن ويكفيه[1].

قال الحسن رحمه الله:

صحبت أقوامًا كانوا لحسناتهم أن ترد عليهم أخوف منكم من سيئاتكم أن تعذبوا بهاها هنا يكون العز لمن أذل نفسه لربه.. هاهنا يكون السناء.. لمن لهج وألح في دنياه بالدعاء.. أيها الحبيب: اطرِّح مسلك المفرطين في الدنيا جانبًا.. ونادِ:

أتيتُ إليك يا ربَّ العبادِ ... بإفلاسي وذُلِّي وانفرادي

وها أنا واقفٌ بالباب أبكي ... زمانًا ما بلغتُ به مرادي

عسى عفوٌ يُبَلِّغُنِي الأماني ... فقد بَعُدَ الطَّريقُ وقلَّ زادي[2]

ولكن ما حال ذي القلب المنيب، وكيف يكون بعثه السهل الرحيب؟

كيف حال العروس بين الفزعين؟

أما صاحب القلب المنيب فقد تركناه وهو نائمٌ كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه.. ونحن نراه الآن أمامنا.. إذ لم يَطُلْ نومه[3]؛ فقد بعثه الله عز وجل من

(١) بتصرف من كلام نفيس لابن الجوزي في مواعظه التي تسمى: «الياقوتة»، ص: ٩١.

(٢) اغتنام الأوقات في الباقيات الصالحات قبل هجوم هام اللذات، ص: ١٣٢.

(٣) ( ) من المعلوم أن الوقت يمر على النائم سريعًا، ومصداق ذلك في قول الله تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، وقوله: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ [الكهف: ١٩]، والموت أولى بهذا الحكم من

مضجعه ذلك.. فأكمِلْ مشاهد الحق، واصطحب معالم الصدق، وتابع خطواته في الدار الآخرة:

بعد أن أُعيد إليه خلقه كما كان أول مرة كبقية العباد، وخرج إلى ظاهر الأرض من باطنها جاءه نداء الحق الصداح الهادئ الذي طَيَّبَ نَفْسَهُ وأنفاسه، وواسى قلبه وإحساسه:

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر:٢٧ - ٢٩]..

أيتها النفس ارجعي إلى ربك أي إلى صاحبك وجسدك.. فيأمر الله تعالى الأرواح أن ترجع إلى الأجساد[١].. وبعد أن ترجعي إلى الأرض حيث الأجساد.. فارجعي أيتها النفس المطمئنة.. ارجعي إلى ربك الجليل ليوصلك إلى محل كرامتك.. وارجعي إلى ثواب ربك وكرامته[٢]، فالآن.. الآن موعدك الحق.. فانظر للرجوع الهانئ.. وقارن حاله مع الآخرين.. هل يستويان مثلًا؟!

النوم، ولكن مدة البرزخ بالنسبة للمؤمن تمر أقصر منها بالنسبة للكافر أو الفاجر، وقد جرت العادة حتى وفق قوانين الدنيا وأزمانها أن أوقات النعيم ورغد العيش تمر سريعًا، وأوقات الشدة والجوع والخوف تمر ثقيلة بطيئة.

(١) هذا أحد التفاسير الواردة.. وقد قاله ابن عباس وعكرمة وعطاء واختاره الطبري، ودليله قراءة ابن عباس: (فادخلي في عبدي) على التوحيد، وهي قراءة شاذة. انظر: المحتسب لابن جني ٢/ ٣٦٠، تفسير القرطبي٢٠/ ٥٧.

(٢) هذا أحد التفاسير الواردة... انظر: تفسير القرطبي٢٠/ ٥٧.

◆ يا صاحب القلب المنيب: انظر حواليك حيث الوجوه الضاحكة للبشرى..

إنه الفزع الأكبر، فالعوالم تتبدل والنفوس حيرى:

لما قام نظر من حواليه.. فرأى هولًا عظيمًا: ماذا حدث للكون؟! النجوم طمست فذهب ضوؤها، ثم كُدرت فتساقطت، واشتد الموقف فتناثرت منه الكواكب كأنها ترابٌ انتشر في الكون، والبحار سُجِرَتْ فاستحالت المياه نارًا موقدة.. المياه صارت نارًا موقدة فكيف يكون -هنالك- الحال، وبماذا يعبر عن ذلك المقال.. والسماء انفطرت وانشقت ففرجت، وتدلت أرجاؤها، ووهت أطرافها، ثم كشطت كشطًا.. والجبال نسفت.. فذهبت فلم يبق لها عينٌ ولا أثر، وتطايرت ذراتها فصارت كالعهن المنفوش.. وكان ﴿يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠﴾ [الإنسان:١٠].. حتى صار -كما يقول مقاتل رحمه الله- **شره فاشيًا في السموات فانشقت، وتناثرت الكواكب.. وفزعت الملائكة.. وفي الأرض نسفت الجبال، وسجرت البحار**[1]... وزاد من رهبة ذلك اليوم ورعبه أنه استطال أمده، وامتد زمانه فكان مساويًا لخمسين ألف سنة، لكن الله عز وجل بفضله ولطفه يخففه على عبده، فيعطيه من التكريم أحسنه، ويصور لنا النبي ﷺ خير تصويرٍ وأمتنه، فيقول: «يهوِّن ذلك على المؤمنين، كتدلي الشمس للغروب إلى أن تغرب»[2].

(١) انظر: تفسير القرطبي ١٩/ ١٢٨.

(٢) ( ) صحيح ابن حبان (٧٣٣٣)، قال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري، وصححه الألباني في "التعليقات الحسان" (٧٢٨٩).

وكان المنظر العام للحال في ذلك اليوم.. يوم الأهوال، واضطراب الأحوال..-كما يقول قتادة رحمه الله-: استطار والله شر ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض.. نعم كم فزع الصالحون من ذلك اليوم، وأشفقوا منه وهم يعلمون أنه الحق.. لقد كان المخبتون يطيعون الله مشفقين وجلين، ويستجيرون به ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾ [الإنسان:٧]..

من جديدٍ: مَنِ القادم؟ اللقاء بأطهر المخلوقات.. ترى من يكونون؟!

تصوّرِ المشهد:

يخرج الناس من القبور فَزِعين وَجِلين يصيحون يصيحون: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس:٥٢]، وآخرون ينادون: ﴿قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا...﴾ [الأنبياء: ٩٧]، وآخرون ينادون فزعين: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ [إبراهيم: ٤٤].. ويزداد الفزع والرعب حتى يهرب الناس بعضهم من بعض فيفر المرء يومئذٍ ﴿مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦﴾ [عبس: ٣٤-٣٦]..بل يود المجرم منهم أن يقذف أعز أحبابه ليكون فداءً له.. ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝١٣﴾ [المعارج:١١ - ١٣]..بل يود المجرم أن يرمي كل أهل الأرض فداءً لنفسه من هول ذلك الموقف.. وكان لكل امرئٍ من الناس يومئذ شأنٌ يغنيه.. يأتون ربهم فرادى كما خلقهم أول مرةٍ.. كل الناس أتوا ربهم في يوم التغابن فردًا.. إلا أن ربي الغفور التواب الودود الوهاب قد جعل للمخبت المنيب ودًّا..

فتلقته أحبابه الأطهار في مقعد صدقٍ يوم القيامة..

لما خرج من قبره.. إلى حشره ونشره.. قام من قبره بعد أن أعاده الله ﷻ كما بدأه كأن أحب الناس إليه قد أيقظه غير فزعٍ ولا وجلٍ.. وهناك في موقف الوجل الشديد اقتربت منه مخلوقاتٌ طاهرةٌ نقيةٌ.. إنهم أولياؤه من الملائكة.. ما أسعده بهذه الصحبة!.. وتأمل لقاءه بالملائكة الأطهار!.. إذ يتلقونه فور خروجه.. إنهم أعز الأحباب، وأجل الأصحاب.. إنهم ملائكة الرحمة يتلقونه[1] كما وعدوه قبل الموت.. هاهم يُقْبِلُون عليه بالتهنئة والبشرى والتحية والعناق.. مع أجلِّ رفاق.. تهدئ من روعه، وتزيد من سكينته.. وتقول له كلمة التبشير العظيمة:

﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٣]

ويهتفون له: أبشروا وأمِّلوا ما يسركم.. وهناك تعود الملائكة مجددًا إلى تبشيره فيقولون له: لا ﴿تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت: ٣٠].. وهكذا تعود الطمأنينة والأمان إليه مجددًا.. فيؤَمِّن الله تعالى خوفَه، ويقر عينه، فما عظيمة يخشى الناس يوم القيامة إلا هي للمؤمن قرة عينٍ لما هداه الله تبارك وتعالى، ولما كان يعمل له في الدنيا.

وفي موقف الطامة الكبرى والقارعة المخيفة وفي عرصات القيامة، رأيته هناك

(١) تفسير القرطبي ١١/ ٣٤٦، تفسير ابن كثير ٣/ ٢٠٠.

ممن ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، يملأ قلوبهم بِشرًا ورضًا وطمأنينةً أن يسمعوا الحق يناديهم ومن معهم من المخبتين:

﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزخرف: ٦٨]..

انظر إلى غيرك لترى نعيمك ما بلغ:

أما بقية الخلق ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠١] لا يتزاورون فيتساءلون عن أحوالهم وأنسابهم.. أما المخبت صاحب القلب المنيب فهو في حفاوته، تأتي الملائكة لتكون معه، ويلتقي بمحبيه في جلال الله تحت ظل العرش..

أما المجرمون فإنهم ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الفرقان: ٢٢]..

عندما يخرجون من أجداثهم مجددًا ويرون الملائكة نازلةً في موقف الصاخة لا بشرى لهم.. وهكذا رأيت أن "الملائكة في هذين اليومين يوم الممات ويوم المعاد تتجلى للمؤمنين وللكافرين.. فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان، وتخبر الكافرين بالخيبة والخسران فلا بشرى يومئذٍ للمجرمين وتقول الملائكة للكافرين: حرامٌ محرمٌ عليكم الفلاح اليوم"[1]، حجرًا محجورًا: الفلاح لا يأتيكم فهو ممنوعٌ عليكم وأنتم ممنوعون منه.

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٣١٤.

ومنادي الحق ينادي على موقف صاحب القلب المنيب:

﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۗ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾﴾ [ص:٤٩]

فهاهم يصيرون إلى أحسن مآب، وخير مرجعٍ ومثاب.

ألا فأبشر يا صاحب لا إله إلا الله.. أبشر: فليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في نشورهم[1].

يا صاحب لا إله إلا الله لَكَأنَّك بك وبأهل لا إله إلا الله ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر:٣٤][2].

◆ يا صاحب القلب المنيب:

هل ستبكي؟!.. هل ستبكي هناك فرحًا وأنت تذكر أنك كنت تردد: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [الإنسان:١٠].. فإذا أصحابك الأطهار ينادونك في مقابل ذلك: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء:١٠٣]؟!..وهناك رأيتَ نفسكَ وأصحابك وقد وقاكم الله ﴿شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ [الإنسان:١١]، وقاكم شر ذلك اليوم الرهيب.. فدفع عنكم بأسه وشدته وعذابه، حتى رأيت أنك لا تملك نفسك وقلبك.. بل ووجهك من شدة الفرح والسرور فقد لقَّاكم الرب الودود ﴿نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾ [الإنسان: ١١].. نضرة في

(١) الطبراني في الأوسط (٩٤٧٨)، وانظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٤٦، وإنما ذكرته بغير قوسي الحديث لما غُمِز به سنده من ضعف.. أما معناه فكل الآيات والأحاديث تدل عليه، وما هو إلا شرحٌ لها.

(٢) شعب الإيمان (٩٩)، وضعف إسناده العراقي في "المغني"، ص ٣٥٢.

وجوهكم.. وسرورًا في قلوبكم.. تكرمًا منه عليكم أيها المخبتون من بين سائر العالمين..

الشمس تدنو من العباد فتصهرهم.. فأين المفر للخلائق برِّهم وفاجرهم؟

ولكن أهوال القيامة تتابع؛ فقد حدث للخلائق ضمن تلك العرصات العظيمة والأهوال الضخمة كربٌ عظيمٌ؛ إذ «أُدنيت الشمس من العباد، حتى تكون قيد ميلٍ أو اثنين..»[(١)]، بل لا يتوقف الأمر على مجرد دنوها؛ إذ «يزاد في حرِّها كذا وكذا»، حتى إنه «يَغْلِي مِنْهَا الْهَوَامُّ كَمَا تَغْلِي الْقُدُورُ» أما الناس في المحشر.. «فتصهرهم الشمس، فيعرق الناس [على قدر خطاياهم]».. تأملهم! انظر إليهم!: «فَيَكُونُونَ فِي الْعَرَقِ بَقَدْرِ أَعْمَالِهِمْ ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَبْلُغُ عَرَقُهُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ إِلَى نِصْفِ السَّاقِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ الْعَجُزَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ الْخَاصِرَةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ مَنْكِبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ عُنُقَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ وَسَطَ فِيهِ -وَأَشَارَ بِيَدِهِ فَأَلْجَمَهَا فَاهُ..»[(٢)].. يا للخزي والهوان!.. يا للحسرة التي تعتري الإنسان!.. يا للضنك الذي يصاحب الخسران!.. ترى من الناس في ذلك المقام من يلجمه العرق إلى فيه إلجامًا.

---

(١) قال أحد الرواة: "لا أدرى أي الميلين عنى أمسافة الأرض أم الميل الذي تكتحل به العين" وينبغي أن نذكر هنا أنه تُزاد أيضًا في خِلْقة الإنسان حتى يذوق العذاب دون أن يفنى.

(٢) الترمذي (٢٤٢١)، الحاكم (٨٧٠٤)، وحسنه الوادعي في الجامع الصحيح (٥٦٣)، وأصل الحديث في مسلم (٢٨٦٤).

فتأمَّل أي حبيباه هول الموقف بعين بصيرتك، واشهده حاضرًا قريبًا!، "واعلم أن كل عَرَقٍ لم يخرجه التعب في سبيل الله من حج وجهاد وصيام وقيام وتردد في قضاء حاجة مسلم وتحمل مشقة في أمر بمعروف ونهي عن منكر فسيخرجه الحياء والخوف في صعيد القيامة ويطول فيه الكرب، ولو سلم ابن آدم من الجهل والغرور لعلم أن تعب العرق في تحمل مصاعب الطاعات أهون أمرًا وأقصر زمانًا من عرق الكرب والانتظار في القيامة، فإنه يوم عظيمة شدته، طويلة مدته"[1].

يجمع الله الخلائق «كَمَا يُجْمَعُ النَّبْلُ فِي الْكِنَانَةِ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، ثُمَّ لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْكُمْ»[2].. فأي وحشةٍ تعتريك من هول ذلك اليوم؟! وأي خوفٍ يسري في عروقك؟! فعلى الرغم من شدة الكرب، وطول المدة «لا ينظر» إليهم فذلك -أيا صاحب القرآن- ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: ٦].. يقفون موقفًا واحدًا خمسين ألف سنة لا ينظر الله إليهم، ولا يقضي بينهم، فهل ترى أكثر باكيًا من يومئذ.. تراهم عند ذاك يدمعون دمًا، والعرق يتوالى ويزداد ويعرقون حتى يبلغ من بعضهم أن يلجمهم أو يبلغ الأذقان فما أكثر ضجتهم حينها... يقول الحسن البصري رحمه الله:

"ما ظنك بيوم قاموا فيه على أقدامهم خمسين ألف سنة، لم يأكلوا فيها أكلة،

(١) إحياء علوم الدين، (٤/ ٥١٥).

(٢) الحاكم (٨٧٠٧)، وصححه، ووافقه الذهبي، والطبراني في الكبير (١٣/ ٣٧)، وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد ومنبع الفوائد" (٧/ ١٣٥): «رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ، وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ».

ولم يشربوا فيها شربة حتى تقطعت أعناقهم عطشًا، واحترقت أجوافهم جوعًا"[١].

فَيُوقَفُونَ أُلُوفًا مِنْ سِنِينِهِمُ ... وَالشَّمْسُ دَانِيَةٌ وَالرَّشْحُ قَدْ كَثُرَا

وَجَاءَ رَبُّكَ وَالأَملاكُ قَاطِبَةً ... لَهُمْ صُفُوفٌ أَحَاطَتْ بِالوَرَى زُمَرَا

وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِالنَّارِ تَسْحَبُهَا ... خُزَّانُهَا فَأَهَالَتْ كُلَّ مَنْ نَظَرَا

لَهَا زَفِيرٌ شَدِيدٌ مِنْ تَغَيُّظِهَا ... عَلَى العُصَاةِ وَتَرْمِي نَحْوَهُم شَرَرَا[٢]

في ذلك الجو اللاهب: أبشر.. أتحت ظل عرش الرحمن؟!

وفي هذه الأثناء كان للأواب الحفيظ.. كان لصاحب القلب المنيب شأنٌ آخر؛ فقد نادى الحق ﷻ:

«أين المتحابون بجلالي اليوم، [لهم منابر من نورٍ]، أُظلُّهم في ظِلِّي يوم لا ظِلَّ إلا ظِلِّي»[٣]..

الخلائق في لهيبهم وخوفهم وفزعهم وهو أين.. أين؟! في الظل؟! وأي ظلٍّ أيها العاشق المشتاق.. أي ظلٍّ يا صاحب القلب الخفاق؟ إنه ظل عرش الرحمن.. أنت هناك محاط بعناية خاصة، ورعاية لا مثيل لها، ومعاملة أرقى وأسمى.. يغمرك

(١) النهاية في الفتن والملاحم، ابن كثير ١/ ٣٥٧.

(٢) ديوان ابن مشرف، ص: ٣٥.

(٣) مسلم (٢٥٦٦)، والزيادة عند الترمذي (٢٣٩٠)، وقال: "حسن صحيح".

الله بفيض حنانه، وتتغشاك سحائب امتنانه.. ستشهد في ظل عرش مولاك أعظم اللحظات، وأروعها.. وتتلذذ بأفياء ندية لم تمر عليك قبل.. ولك مع أحبابك في ظل العرش مجمع نوراني.. يتلألأ على محياك سنا نور الإيمان، وترتسم على وجهك الريَّان، بشائر السرور والإحسان، من لدن الكريم المنان.

وهكذا اجتمعوا تحت ظل عرش الله، وعلى الرغم من أنهم ليسوا بأنبياء ولا شهداء إلا أنه «يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى»، وما لهم ألا يكون لهم ذلك، وهم «قومٌ تحابوا بروح الله على غير أرحامٍ بينهم، ولا أموالٍ يتعاطونها»؟!..انظر إليهم، ومَتِّعْ نظرك..«فوالله إن وجوههم لنورٌ، وإنهم لعلى نورٍ»[1]، وبينما الناس في حزنهم، بينما الناس في رعبهم، بينما الناس في خوفهم.. رأيتهم هناك «لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس».

ومنادي الحق ينادي عليهم: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: ٦٢]..

وهناك.. هناك التقى صاحب القلب المنيب مع أَعَزِّ أحبابه الذين تحاب معهم في جلال الله تعالى، يا لأنس اللقاء في عرصات ذلك اليوم العبوس القمطرير!.. نعم، لقد كان يخاف من ربه هذا اليوم وكان يعلنها مع صحبه: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾

(١) أبو داود (٣٥٢٧)، وقال شعيب الأرناؤوط: "حديث صحيح، وهذا إسناد فيه انقطاع؛ فإن أبا زرعة بن عمرو بن جرير لم يُدرك عمر بن الخطاب ﷺ".

[الإنسان: ١٠]..وهاقد جاءهم ذلك اليوم ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ [الإنسان:١١]، وليس ذلك فقط فهاهم تحت ظل عرش الرحمن قد ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾ [الإنسان:١١].

فيا لجمال هذا الحب والإخاء! أنسوا بظلاله في الدنيا.. وهاهم اليوم بِشَارتِه مميزون وبشعاره موسومون: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧ - ٦٩].

تحت ظل عرش الرحمن: أي نعيمٍ وأي مزية!

ولروعة ما هم فيه من نعيمٍ يسير الإنسان فيه ويطمئن ويختال.. في ذلك اليوم العظيم الأهوال لربما تساءل بعض الناس من حواليه: لِمَ كل هذا الاحتفاء به بينما الناس في عَرَقِهم؟.. فنظرتَ في ذلك وقلبتَ النظر فعرفت أنه قد اجتمعت فيه عدة صفاتٍ جعلته ينعم بظل عرش الله ﷻ[1]، فقد كان شابًّا «نشأ في عبادة الله»، وكان «قلبه معلقًا بالمساجد»، وكان مع خليلٍ من أعز أخلائه ممن تحابا «في الله فاجتمعا عليه وتفرقا عليه»، وكان.. يا لهفتاه! حريصًا على أن يتصدق «بصدقةٍ ويخفيها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»، وكم مرَّت عليه أوقاتٌ «ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه» خوفًا وطمعًا..

وقد التقى تحت ظل عرش الرحمن بثلةٍ من المخبتين الذين كانت فيهم صفةٌ

(١) حديث السبعة المشهور عند البخاري (٦٢٩)، مسلم (١٠٣١).

من هذه الصفات العزيزة أو أكثر، ومنهم الكُمَّل الأخيار الذي اجتمعت فيهم هذه الصفات وأكثر منها، فهذا إمامٌ عادل، وذا شابٌ نشأ في عبادة الله، وهذا رجلٌ قلبه معلقٌ في المساجد، وهذان رجلان تحابَّا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، وهذا رجلٌ دعته امرأة ذات منصبٍ وجمال فقال: إني أخاف الله، وهذا رجلٌ تصدق بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، وهذا رجلٌ ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه.. وهذا شاب اجتمعت فيه كل هذه الصفات.. لله درهم.. واحر قلباه ألا يكون لنا فيهم نصيب!.. وإنا لنرجو الله أن يدخلنا في زمرتهم.

وفتيةٌ في رياض الذِّكر مَرْتَعُهُمْ ... لله ما جمعوا، لله ما وهبوا

إذا نظرتَ إليهم خِلْتَ أنهمُ ... جاؤوا من الخلد أو للخلد قد ركبوا

◆ أيا جليس المساجد:

فقد رأيت صاحبنا أمامك.. آواه الله ﷻ إلى ظل عرشه.. ظلٍ ظليل، وهدوء بالٍ، وسعادة قلبٍ، ونسيمٍ عليل.. والخلائق في كربٍ عظيم لا يُفَتَّرُ عنهم هول يوم القيامة وهم فيه مبلسون.. انظر من حواليه: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ۝٩﴾ [النازعات: ٨، ٩] بل صاح منادي الحق: هذا يوم الآزفة الذي تكون فيه ﴿الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾ [غافر: ١٨].

شابت الولدان، وذابت الأجفان: إنه قادم الهلاك.. كيف الفكاك منه؟.. كيف الفكاك؟

ثم رأيت شيئًا عظيمًا يؤتى به.. لما فيه من الهول والفزع والرعب رأيته كأنه سرابٌ يحطم بعضه بعضًا... فتساءل الخلق ما هذا؟.. ومنادي الحق يصعق أفئدة الخلق يخبرهم عن هذا الشيء العظيم ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الشعراء:٩١].. ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ [الفجر: ٢٣].. ويشتد الكرب والهول فـ«يفزع الناس ثلاث فزعاتٍ»[(١)] "إذا جيء بجهنم فإذا زفرت فزع الناس حينئذ وجثوا على ركبهم"[(٢)].. يسيطر على النفوس الهلع، ويغشى القلوب شدة الفزع.. إنه الرعب الذي أنذرتهم إياه الرسل.. فلا تسل عن بكاء الباكين، وعويل النادمين، وصراخ المفرطين..

وازداد الرعب حين سمع الخلائق أجمعون قولًا ينادي آدم أبا البشر عليه السلام: «أَخْرِجوا بعث النار»، فأسقط في نفوس الخلائق، واستطار الخوف..«فيقال: كم؟ فيقال: من كل ألفٍ: تسعمائةٍ وتسعةٍ وتسعين» عندها لا تسل عن الرعب الذي حل بهم..«فيومئذ تبعث الولدان شيبًا»[(٣)].

---

(١) الترمذي (٣١٤٨)، وقال: حسن صحيح، وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد ومنبع الفوائد" (٧/ ٣٤٢): «رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالطَّبَرَانِيُّ، وَفِيهِ عَلِيُّ بْنُ زَيْدٍ وَفِيهِ ضَعْفٌ وَقَدْ وُثِّقَ، وَبَقِيَّةُ رِجَالِهِمَا رِجَالُ الصَّحِيحِ».

(٢) هذا كلام تفسير القرطبي. ينظر: تفسير القرطبي ٦/ ٣٦١.

(٣) مسلم (٢٩٤٠).

ولربما اعترى صاحب القلب المنيب من الحزن العظيم، والخوف الشديد ما يعتريه وهو يسمع ذلك كما سمعه الخلائق.. لكن الله ﷻ يبدل حزنه سرورًا.. ويملأ قلبه بِشْرًا ورضًا وطمأنينةً وحبورًا.. إذ يسمع الحق يناديه ومن معه من المخبتين:

﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٦٨﴾ [الزخرف: ٦٨]..

◆ ولِمَ تحزن؟!

لِمَ تحزنْ.. وهناك تجد أخلاءك وأولياءك في الحياة الدنيا والآخرة من الملائكة يبشرونك بأن الله ﷻ قد جعل مكانك في النار فردًا من أعدائه؟! وذلك أنه «إذا كان يوم القيامة بعث الله إلى كل مؤمنٍ ملكًا معه كافرٌ فيقول الملك للمؤمن: يا مؤمن هاك هذا الكافر فهذا فداؤك من النار»[1]، فتفتدي نفسك من النار بمن يستحقها.. ويقر بالك، ويهدأ قلبك؛ إذ إن مجرد معاينة أهوال القيامة، والنظر إلى تغيظ النار، وسماع زفيرها.. يُلْقِي في القلب أنه غير ناجٍ.. مع كثرة أنعم الله عليه في الدنيا، وقلة شكره.. ولكن الله يذهب حزنه، ويبعد همه وغمه..

◆ ولِمَ تحزن أيها القانت البار يا صاحب القلب المنيب؟!

لِمَ تحزن والله تعالى قد خفف عنك يوم القيامة وأنت تحت ظل عرش الله فصار عندك «كقدر ما بين الظهر والعصر»[2]؟! وهذه من أعظم البشرى للمؤمنين.. فإن

(١) أحمد (١٩٦٧٠)، وقال محققو المسند: "حديث صحيح، وهذا إسناده حسن".

(٢) ( ) الحاكم (٢٨٣)، وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي، وذكره الألباني في الصحيحة (٢٤٥٦) .

معاينة أهوال القيامة يومًا واحدًا هو العذاب ذاته فكيف بمعاينة الأهوال خمسين ألف سنة؟!

أبْشِرْ.. هاهي الجنة تقترب.. مَتِّعْ نظرَك.. إنها أمامك:

وفجأة بعد ترقبٍ قَلِقٍ، ونفسٍ ملتاعةٍ جاء النداء الإلهي يحجز بين أهل المحشر.. نادى المنادي في ذلك اليوم العظيم: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٥٩﴾ [يس:٥٩]: "اعتزلوا عن أهل الجنة، وكونوا فرقةً على حدة"(١).. ما أشد وقع هذا النداء المرهوب! وكم فطر بسياطه نياط أرباب القلوب، فهاهو يحيى بن عبد الرحمن يقول: "سمعت سعيد بن جبير ﷺ يردد هذه الآية: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٥٩﴾ حتى يصبح"(٢).

وقرأ ميمون ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٥٩﴾، فَرَقَّ حتى بكى، ثم قال:

"ما سمع الخلائق بعتب أشدَّ منه قط"(٣).

وهكذا بعد أن نادى منادي الحق فأصدر أمرًا إلهيًّا بفك الاختلاط بين المفلحين وبين المجرمين.. وعند ذاك رأيت الناس ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤]..

---

(١) التبيان في تفسير غريب القرآن، (ص: ٣٥٠).

(٢) صفة الصفوة (٢/ ٤٥).

(٣) حلية الأولياء (٢/ ١١٦).

ترقب الأمر الإلهي: فقد صدر الأمر الإلهي بقسمتهم إلى قسمين: السعداء والأشقياء..

وهنا اضطربت النفوس ووجلت القلوب.. ووجل الخلق.. كلٌّ يخاف على نفسه أن يُصَنَّفَ في الصنف المذموم المدحور.. ثم ظهر السعداء.. وكان صاحب القلب المنيب منهم.. ووفَّق الله ﷻ صاحب القلب المنيب برحمته فاصطفاه وخَلَّصه.. فيا للفرحة الغامرة، واللحظات الساحرة!.. كان من السعداء بعد أن اجتاز أخطر محطات القيامة: توزيع كتب الحساب، والميزان، والصراط.. وابتهج مع أحبابه من المبتهجين.. وبعد القسمة الإلهية بين أهل المحشر أيجرؤ أحدٌ أن يعترض حكم الملك العدل الحق المبين؟.. أيجرؤ؟ كيف وهم يأتون ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [هود: ١٠٥]؟!

يا عاشق الجنة:

ألا فأعلن الفرح، وأظهر الابتهاج؛ إذ صُنِّفت ضمن فرقة الناجين المفلحين.. عند ذاك رأيت المؤمنين وقد خَفَّ خوفهم أو زال.. ثم هاهو فرحهم بأنفسهم يزداد.. ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾ [ق: ٣١] إنه حدثٌ لا يمكن إخفاء فرحه!.. أزلفت الجنة!.. أدنيت وقربت منكم أيها المتقون!.. وكانت غير بعيدٍ منكم يوم القيامة.. فأنتم واصلون إليها لا محالة، وكلُّ ما هو آتٍ قريب.. وهم في فرحهم يسمعون منادي الحق ينادي: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [ق: ٣٢، ٣٣]..عندها ربما راجع كلٌّ منهم نفسه لينظر ألَه من هذه الصفات نصيبٌ.. ولَه بربه سببٌ من عملٍ أواهٍ منيب؟

◆ **أيها المتقون:**

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢﴾ [ق:٣٢]، هذا ما توعدون لكلِّ رجَّاعٍ تائبٍ مقلعٍ حفيظٍ.. حفظ العهد الذي بينه وبين ربِّه ﷻ فلم ينكثه، وامتلأ صدره باليقين..

◆ **أيها المتقون:**

هذا ما توعدون لكلِّ من حفظ عهد ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥].

◆ **أيها المتقون:**

هذا ما توعدون لكل أوابٍ حفيظٍ يكثر الاستغفار، في مجلسه من ليلٍ أو نهار، سَمْتُه سمتُ الصالحين..

◆ **أيها المتقون:**

أبشروا! فإن هذه الجنة جزاء لـ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [ق: ٣٣]، جزاء لمن خاف الله ﷻ في سره، حيث لا يراه أحدٌ إلا الله ﷻ.. ممن كان يعاتب نفسه في الدنيا:

إذا ما خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فلا تَقُلْ ... خَلَوْتُ وَلكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبُ

ولا تحْسَبَنَّ اللهَ يَغْفَلُ سَاعَةً ... وَلا أَنَّ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ يَغِيبُ

لَهَوْنَا عن الأيامِ حتى تَتَابعتْ ... ذُنُوبٌ على آثارِهِنَّ ذُنُوبُ

فياليتَ أنَّ اللهَ يَغْفِرُ ما مَضَى ... ويصفحُ عن زلاتنا فنتوبُ[1]

(١) تنسب هذه الأبيات لأبي العتاهية، والحسن بن عمرو الأباضي، ولأبي محمد التيمي، ويزعم البعض أنها لأعرابي من بني أسد. ينظر: ديوان أبي العتاهية ص: ١٠، و الحماسة البصرية ٢/ ٤٧، و سمط اللآلي في شرح أمالي القالي ٢/ ٣، وشعر الخوارج، ص: ٢٣٤، و عيون الأخبار ٢/ ٣٤٧.

◆ أيها المتقون:

أبشروا! فهذا ما توعدون لمن خشي الرحمن بالغيب.. ذكر الله تعالى خاليًا ففاضت عيناه.. وامتلأ بالموعظة قلبه وأذناه..

◆ أيها المتقون:

هذا ما توعدون لمن ﴿وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ٣٣﴾ [ق:٣٣] لمن أتى اليوم فلقي الله ﷻ بقلبٍ منيبٍ سليم.. خاضع لديه.

فماذا يملك القلب إلا أن يقول: يا من لم يزل عليمًا عظيمًا عليًّا.

يا من لم يزل جبَّارًا قهَّارًا قادرًا قويًّا.

يا من رفع سقف السماء بصنعته فاستوى مبنيًّا.

يا من سطح الأرض بقدرته وسقاها كلما عطشت ريًّا.

يا من أخرج صنوف النبات فكسى كل نبت زيًّا.

يا من قسم الخلائق سعيدًا وشقيًّا.

يا من ذكر برحمته عبده زكريا.

يا من يسمع دعاء العبد إذ نادى ربه نداء خفيًّا: اجعلني عندك رضيًّا، كن بي حفيًّا، ولا تجعلني بدعائك شقيًّا، ارفعني مكانًا عليًّا، اجعلني عندك مرضيًّا.

قُمْ فِـي ظَلامِ اللَّيْلِ وَاقْصدْ مَهَيْمنًا ... يَـرَاكَ إِليـه في الدُّجَى تَتَوَسَّـلُ

وَقُلْ يَا عَظِيْمَ العَفْوِ لا تَقْطَعِ الرَّجا ... فَأَنْتَ الْمُنَى يَـا غَايَتِي وَالْمُؤَمَّلُ

فَيَـا رَبِّ فاقْبَـلْ تَوْبَتِـي بِتَفَضُّـلٍ ... فَمَـا زِلْتَ تَعْفُو عَنْ كَثِيْرٍ وَتُمْهِلُ

فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَعْفُـو وَأَنْتَ ذَخِيْرَتِي ... لِمَنْ أَشْتَكِي حَالِي وَمَنْ أَتَوَسَّلُ

رَجَـوْتُ إِلَهِـي رَحْمَـةً وَتَفَضُّلًا ... لِمَـنْ تَابَ مِـن زَلَّاتِـهِ يَتَقَبَّلُ[1]

الكسوة والستر.. يوم يُحَصَّلُ ما في الصدور.. يوم تبلى السرائر:

وعلى الرغم من هذا التكريم للمفلحين من الخلق فإنك ترى الخلق في ذلك الوقت ما يزالون كما وصفهم النبي ﷺ:

«يجاء بهم حفاةً عراةً غُرْلًا، فيكون أول من يكسى إبراهيم يقول الله تعالى: اكسوا خليلي.. فيؤتى بِرَيْطَتَيْنِ بيضاوين من رِياط الجنة».. يتابع النبي ﷺ وصفه لهذه اللحظات الحاسمة فيقول: «ثم أُكسى على أثره، ثم أقوم عن يمين الله مقامًا يغبطني الأولون والآخرون»[2].

(١) مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار، عبد العزيز السلمان، ١/ ٩.

(٢) الدارمي (٢/ ٤١٩)، واللفظ له، وأحمد (٣٧٨٦)، وقال محققو المسند: إسناده ضعيف لضعف عثمان بن عمير البَجَلي، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح غير سعيد بن زيد فمختلف فيه، والرَّيطة: كل ثوبٍ رقيق لَيِّن.

يقول الإمام القرطبي رحمه الله:

"فطوبى ثم طوبى لمن كسي في ذلك الوقت من ثياب الجنة، فإنه من لبسه فقد لبس جبة تَقِيهِ مكارهَ الحشر وعرقَه وحرَّ الشمس وغير ذلك من أهواله"(١)..

طوباك يا من أوقفت أنفاس عمرك لله.. طوباك من أدام ذكر سيده ومولاه.. فاصطفاه وأخلصه وتولاه.. طوباك بكسوة من حلل الجنة.. تكون لك حبرة وزينة وجُنة.. وشعارًا لتمام فضل الله عليك والمنة.. وإيذانًا بأنك من الفائزين برضوانه والجنة.

أي حبيب الجنة ومحبها: تصور! النبي ﷺ قلقٌ عليك.. وانظر كيف بلغ حبه لك:

مع شدة ذلك الموقف فإن النبي ﷺ قلقٌ ولهان يحب أن يرى المفلحين من أمته.. إنه باختصارٍ يريد أن يرى صاحب القلب المنيب فيا شوقاه لذلك اللقاء!.. وترى النبي ﷺ وهو يبحث عن المفلحين في عرصات القيامة في أوساط الأمم.. هناك «عُرِضَتْ عليه الأمم» وهو يتفقد أمته بينهم.. «فجعل يمر النبي ومعه الرجل، والنبي ومعه الرجلان، والنبي والنبيان يمرون معهم الرهط، والنبي ليس معه أحد»..

وسيدنا المصطفى ﷺ يبحث عن أمته «حتى رفع له سوادٌ عظيم [سَدَّ الأفق]»،

(١) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، ص: ٥٣٤.

فيسأل متلهفًا راجيًا أن يكون هذا السواد أمته وذلك لكثرتهم.. فيقول: «ما هذا؟ أمتي هذه؟ قيل: هذا موسى وقومه» وقد كان النبي ﷺ يود أن نكون أكثر الناس ليباهي بنا وباستجابتنا له الأمم.. عندها يقال له: «انظر إلى الأفق. فإذا سوادٌ عظيم يملأ الأفق، ثم قيل له: انظر هاهنا وهاهنا في آفاق السماء، فإذا سوادٌ قد ملأ الأفق. قيل: هذه أمتك» فأمة محمد ﷺ يومئذٍ يملؤون الآفاق حتى يباهي النبي ﷺ بأمته الأمم ولا فخر.. ومن كثرتهم ﷺ حمدًا لك ربِّ- من كثرتهم يراهم النبي ﷺ «قد ملؤوا السهل والجبل» حتى يُعجب السيد المصطفى ﷺ كثرتهم وهيأتهم، حتى يقال له: «أرضيت يا محمد؟ قلت: نعم أي رب»[1].

بشرى لنا معشرَ الإسلام إنَّ لنا ... مِنَ العنايةِ ركنًا غيرَ منهدمِ

لما دعا الله داعِيْنا لطاعته ... بأكرم الرُّسل كنَّا أكرمَ الأممِ[2]

يا سعادة المحبين للمصطفى الأمين! أجل يتحقق الآن الوعد الإلهي للنبي المصطفى والخليل المجتبى والشفيع المرتجى ﷺ.. الآن يتحقق له وعد ربه.. فقد وعده ربي ﷺ عزَّ جاره- في الدنيا وعدًا عظيمًا..إذ قال له: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: ٥]..وأما الآن فيقال له: هل رضيت؟.. وهل سيرضى لنا الموصوف

(١) البخاري (٥٣٧٨)، الزيادة عند ابن حبان (٦٠٨٤).

(٢) البيتان من قصيدة البردة للبوصيري. ينظر: ديوانه، ص: ٢٤٨.

بأنه عزيزٌ عليه ما عنتت أمته، حريصٌ عليها، ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]..هل سيرضى لنا بغير الجنة بدلًا؟!

قرأنا في الضُّحى ولسوفَ يرضى ... فَسَرَّ قلوبَنا ذاك العطاءُ

وحاشا يا رسولَ الله ترضى ... وفينا مَنْ يُعَذَّبُ أو يُساءُ

وهنا تسمع النبي ﷺ.. فتُشَنِّفُ له آذانك؛ إذ يفتخر في موقفٍ تصاغر فيه الناس أجمعهم: «أنا أكثر الناس تبعًا يوم القيامة»[1].. المشاعر المحمدية هنا في أَوْج عُنْفُوانها.. إنها مزيج فريد من حبٍّ مقرونٍ بحنان مجلَّلٍ بفخر.. نعم بفخر!.. فخر يفوق فخر الأب بفوز ابنه بنيل شهادة أو مرتبة أو منصب دنيوي.. كيف لا، والأمر أعظم من ذلك وأجل وأفخم؟!.. إنه الفوز برضوان الله وجنانه الأبدية.. هنا محبة ورحمة محمدية لا متناهية.. لا حد لها ولا أمد.

روحي فداك يا حبيب الله.. وحبيب القلوب وقرة العيون.. أيُّ حنان هو حنانك؟! أيُّ شفقة وحبٍّ قد أترع به فؤادك لنا يا رسول الله؟! وَلَهُك في ذلك اليوم ودعاؤك وحدبك لأمتك..

(١) أحمد (٣٨١٩)، ابن حبان (٦٠٨٤)، أبو يعلى (٣٩٧٢)، وقال محققو المسند: "حديث صحيح، وهذا إسناد حسن من أجل عاصم، وهو ابنُ أبي النَّجود ﷺ، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح ﷺ، وجملة «ملؤوا السهل والجبل» في الحديث في المرجعين الأولين، ولا يوجد سهلٌ ولا جبلٌ آنها بحسب الأدلة الأخرى، فيكون المعنى أنه لو كان ثَمَّ سهلٌ أو جبلٌ لملئا منهم لكثرتهم..فهو تقريبٌ للمخاطبين لبيان شدة الكثرة، وأنها كالتي شملت الأرض جميعًا سهلها وجبلها.

ضراعتك لله أن يمن عليها برحمات سابغة ورضًا لا سخطة بعده.

فَيْدْعُوهُ رَبُّ العَرْشِ: سَلْنِي فَإِنَّنِي ◆◆◆ لِنَفْسِكَ بِالمَحْبُوبِ عِنْدِي رِضَاؤُهَا

فَقَالَ: إِلَهِي أُمَّتِي مِنْكَ تَرْتَجِي ◆◆◆ لأَشْفَعَ بَعْدَ الإِذْنِ فَهْوَ مُنَاؤُهَا

فَيُعْطِيهِ مَوْلاهُ الكَرِيمُ شَفَاعَةً ◆◆◆ لأُمَّتِهِ الغَرَّاءِ طَابَ هَنَاؤُهَا[1]

(١) موارد الظمآن لدروس الزمان، عبد العزيز السلمان ٤/ ٦٠٥.

المشهد الثاني

يا ربِّ أرحني .. فلتشرق الأرض بنور ربِّها

هل سمعتَ قائلًا يقول: يا رب أرحني ولو إلى النار[1]:

◆ أيها الحبيب! يا صاحب القلب المنيب!

يجري حولك الآن أحداثٌ عظامٌ.. إن أهوال القيامة لا حدَّ لها في إرعاب العباد وإخافة أهل الفساد.. إذ تعود لتطلَّ على الناس هناك حيث «يجمع الله الناس الأولين والآخرين في صعيدٍ واحدٍ يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، وتدنو الشمس من رؤوسهم»..فإذا دنت الشمس فعند ذلك «يبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون»، ويزداد الكرب؛ إذ «تُعْطَى الشَّمسُ يومَ القيامةِ حرَّ عشرِ سنين»، ثم تظل «تدنو من جماجم الناس، فيعرقون حتى يرشح العرق في الأرض قامةً، ثم يرتفع حتى يغرغر الرجل يقول: غَرْ غَرْ»، و«يشتد عليهم حرها، ويشق عليهم دنوها، فينطلقون من الضجر والجزع مما هم فيه» [فيفظع الناس لذلك، والعرق

(١) انظر: البخاري (٣٣٤٠)، والزيادات عند أحمد (١٢٨٢٤)، ابن أبي شيبة في مصنفه (٣١٦٧٥)، الطبراني في الكبير (٦/ ٢٤٧).

كاد يلجمهم]، و[يلبثون ما شاء الله من الحبس]» «لغَمٍّ ما هم فيه، والخلق ملجَمون بالعرق، فأما المؤمن فهو عليه كالزكمة، وأما الكافر فيغشاه الموت»، ويشتد الأمر اشتدادًا عظيمًا حتى «إن الرجل ليلجمه العرق يوم القيامة، حتى يقول: يا رب أرحني ولو إلى النار»، لا حول ولا قوة إلا بالله، وحسبي الله ونعم الوكيل، وهل في النار راحة؟!

◆ **ارفع يديك وناج الإله القريب المجيب: اللهم اجعلني عند الفزع الأكبر من الآمنين..**

«فإذا رأوا ما هم فيه»، أعطاهم الله -عزَّ جاره- بقية قوةٍ فيقومون يتصايحون بينهم على هيئة المشاورة التي أصاب أصحابها كل تعبٍ ولغبٍ.. عندها يقول: «بعضهم لبعضٍ: ائتوا أباكم آدم عليه السلام حتى يريحنا من مكاننا هذا»..وتتكرر الطلبات بقوةٍ مع شدة الأمر.. لا إله إلا الله، وحسبي الله ونعم الوكيل.. «فيقول بعض الناس لبعضٍ: ألا ترون ما أنتم فيه؟! ألا ترون ما قد بلغكم؟! ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟!»، ثم يستقرون على أن يطلبوا الشفاعة من أبي البشر آدم عليه السلام «فيقول بعضهم لبعضٍ: انطلقوا بنا إلى آدم أبي البشر، فليشفع لنا إلى ربنا فليقضِ بيننا»... وهكذا يلهث سائر الناس يطلبون الشفاعة ليفصل بينهم مجرد الفصل.. وليريحهم من مكانهم.. ولو إلى النار.. نعوذ بالله من غضب الجبار ﷻ.

عسى اللهُ ينجينا مِنَ الهولِ إنَّه ... مَنِ اللهَ يرجو نالَ كلَّ المطالبِ

ومَنْ يَعتصِمْ باللهِ يومًا ويرتجي ... فليسَ بمردودٍ وليسَ بخائبِ[1]

ويشتد الأمر على المؤمنين أيضًا.. وتفجؤهم كلمةٌ صادعة صادمة تخرج من الكريم آدم أبي البشر عليه السلام: «لستُ هناكم».

يطول على المؤمنين أيضًا حيث «يحبس المؤمنون يوم القيامة حتى يهموا بذلك»[2]، يهتم بعضهم ويغتم من ذلك الحبس يوم القيامة.. وعندما يشتد الأمر، ويطول «يجتمع المؤمنون فيقولون: لو استشفعنا حتى يريحنا»، «فيهتمون بذلك»، ولكنهم لا يعلمون كيف يناجون الجبار ﷻ، وهم خائفون أن تكون قد أطاحت بهم الأوزار.. ثم «يقوم المؤمنون حتى تُزلف لهم الجنة» فيطلب المؤمنون الشفاعة «فيلهمون ذلك» «فيأتون آدم عليه السلام» طلبًا للشفاعة.. وهكذا يبدؤون بآدم عليه السلام.. فتابع مسيرتهم المتعبة.. وَأَجْرِ دموع الخشية لله وأنت خالٍ.. عسى أن تجد ثمن ذلك مضاعفًا يوم الأهوال..

يصلون إلى آدم عليه السلام «فيقولون: أنت آدم أبو الناس خلقك الله بيده، وأسكنك جنته، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيءٍ، لتشفع لنا عند ربك حتى

(١) البيتان لسعيد بن دحباج -لطف الله به-. ينظر ديوانه "عتب القوافي" ص: ٥٤.

(٢) حديث الشفاعة مشهور، انظر مثلًا: البخاري (٧٠٠٢)، مسلم (١٩٣)، وستأتي بعض التفصيلات خارج الصحيحين يُشار إليها، ولا نجهد الكتاب بالإشارة إلى من صححها.

يريحنا من مكاننا هذا»، ويقرنون ذلك بما يُلْهِبُ الصدرَ مما أصابهم من الغمِّ والكرب فيقولون: «ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟».

«فيقول: لست هناكم» لستُ في المحل الذي تظنونني فيه.. لستُ في الدرجة التي تسمح لي أن أشفع لكم.. لست هناكم.. يا لها من كلمةٍ تصدعُ الحليم.. أتصدر من نبي الله آدم.. وهو.. هو؟!.. كيف وهو الذي أسجد الله له ملائكته المقربين لما له من كرامةٍ ومكانةٍ، ومنزلةٍ عليةٍ رفيعةٍ؟!.. ولكنه هول القيامة العظيم.. ثم يُخْبِرُهم بشدة ذلك الهول الذي يمنعه من أن يجترئ على الشفاعة عند ربه ﷻ فيقول:

«إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته».. ثم يئن بعبارةٍ عظيمةٍ تدلك على شدة الفزع، وعظم الكرب فيقول:

«نفسي.. نفسي»..

إنه الخوف المخيم المطبق على القلوب!.. إنه الهول الذي لا قِبَل لأحد به حتى أنبياء الله ورسله المخلصون المصطفون!

أيا رباه! لئن كان آدم عليه السلام يخاف على نفسه في ذلك اليوم العظيم، و لا يرجو إلا نجاتها.. فماذا يقول العباد؟! وكيف يبلغ الكرب والضيق في الأكباد؟! اللهم سلم.. اللهم سلم. ولكن آدم عليه السلام يقدم لهم شيئًا واحدًا؛ إذ ينصحهم بشخصٍ آخر فيقول: «ولكن ائتوا نوحًا أول نبيٍ بعثه الله إلى أهل الأرض»..

الأنبياء الذين بعثوا لإنقاذ غيرهم يقولون: «نفسي.. نفسي»:

وينطلق الجمع الخائفُ المتعبُ «فيأتون نوحًا عليه السلام» فيرجونه.. ويتوسلون إليه، ويعددون له مناقبه، ويطلبونه «فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض، وسمَّاك الله عبدًا شكورًا..» ثم يطالبونه بعبارات التوسل الشديد: «اشفع لنا إلى ربك. ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟»..وينتظرون الجواب بلهفةٍ.. ولكن الرد كان مخيبًا لآمالهم.. محطمًا لرجائهم.. يزيد الغمَّ والكرب: «فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوةٌ دعوتُ بها على قومي»، ثم يقول: «لستُ هناكم، ويذكر خطيئته التي أصاب: سؤاله ربه بغير علم»، ثم يعيد لهم عبارةً تزيد في فزعهم فيقول:

«نفسي.. نفسي»..

هذا العبد الشكور يخاف على نفسه أيا عبد الله.. فماذا يكون حالي وحالك؟!..

ولكن نوحًا عليه السلام ينصحهم بنبيٍّ آخر عسى أن يشفع لهم عند ربهم فيقول: «ولكن ائتوا إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن»، فينطلقون والكرب يزداد عليهم في يومٍ عظيم.. وخطبٍ جسيم.. «فيأتون إبراهيم عليه السلام» فيكلمونه ويطلبون منه الشفاعة، ويقولون له: «أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض.. اشفع لنا إلى ربك. ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟» «فيقول لهم إبراهيم عليه السلام: إن ربي قد غضب اليوم

غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله»، ويعتذر لهم بأنه لا يستطيع أن يشفع عند ربه، «فيقول: إني لستُ هناكم. ويذكر ثلاث كلماتٍ كذبهن»، ثم يقول «نفسي.. نفسي.. اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى [عبدًا آتاه الله التوراة، وكلَّمه وقرَّبه نجيًّا] فيأتون موسى عليه السلام يقولون: «يا موسى! أنت رسول الله. فضلك الله برسالاته، وبتكليمه على الناس. اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى عليه السلام: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله [إني لستُ هناكم، ويذكر خطيئته التي أصاب]»، فيقول: «وإني قتلت نفسًا لم أومر بقتلها»، ثم يقول لهم:

«**نفسي.. نفسي**، اذهبوا إلى عيسى عليه السلام عبد الله ورسوله، وروح الله وكلمته»..

تابع الجمع الخائف المرعوب.. وهو ينطلق إلى عيسى عليه السلام..«فيأتون عيسى، فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله، وكلَّمت الناس في المهد، وكلمةٌ منه ألقاها إلى مريم، وروحٌ منه فاشفع لنا إلى ربك. ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى عليه السلام: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله. ولم يذكر له ذنبًا»..

ولكن على الرغم من أنه لم يذكر ذنبًا إلا أنه شعر أن ذلك لا يؤهله لأن يقوم بمهمة الشفاعة.. لذا يقول لهم: «لستُ هناكم.. نفسي.. نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ عبدًا غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»..

وهكذا «يستنصرون الأنبياء نبيًّا نبيًّا، كلما جاؤوا نبيًّا أبى عليهم»[1]، ولا من معينٍ، ولا ناصرٍ.. وكل نبيٍّ يخاف على نفسه..

الشفاعة العظمى، والدرجة الأسمى للسيد المصطفى والرسول المجتبى ﷺ:

وفي هذه الأثناء يكون النبي ﷺ وأمته العظيمة «على تلٍّ، فيكسوه ربه حلةً خضراء»[2].. قال ﷺ: «فيأتوني فيقولون: يا محمد، أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟..»..

يا سيِّدَ الرسلِ يا نِعْمَ الشَّفيعُ إذا ••• طالَ الوقوفُ وحَرُّ الشَّمسِ قد لفحا

أنت المشفعُ والأبصارُ شاخصةٌ ••• أنت الغياثُ وهولُ الخَطْبِ قد فدحا[3]

ولا يأتي المؤمنون وحدهم، بل تأتي الأنبياء أيضًا إلى النبي ﷺ لتعزز الموقف، وتؤكد الطلب.. حتى ينهض النبي ﷺ للشفاعة للخلق أجمعين.. تأتي جموع الأنبياء وجموع المؤمنين طالبةً منه ﷺ أن يشفع إلى الله ﷺ حتى يفصل بين العباد، ويصفون له ما قد وصل إليه العباد من الغم، كما قال ﷺ: «إني لقائمٌ أنتظر أمتي تعبر الصراط، إذ جاءني عيسى عليه السلام قال: هذه الأنبياء قد جاءتك يا محمد يسألونك

(١) مسند إسحاق بن راهويه (١٠).

(٢) أحمد (١٥٧٨٣)، ابن حبان (٦٤٧٩)، وقال محققو المسند: "رجاله رجال الصحيح، وفي متن هذا الحديث غرابة".

(٣) ديوان ابن زمرك، ص: ٢٩.

-أو قال- يجتمعون إليك، ويدعون الله أن يفرق بين جميع الأمم إلى حيث يشاء الله لغمِّ ما هم فيه»[١] عندها يقول النبي ﷺ لعيسى عليه السلام: «انتظر حتى أرجع إليك».

طَالَ الْوُقُوفُ فَجَاءُوا آدَمًا فَرَجُوا ... شَفَاعَةً مِنْ أَبِيهِمْ أَوَّلِ الْبَشَرِ

فَرَدَّ ذَاكَ إِلَى نُوحٍ فَرَدَّهُمُو ... إِلَى الْخَلِيلِ فَأَبْدَى وَصْفَ مُفْتَقِرِ

إِلَى الْكَلِيمِ إِلَى عِيسَى فَرَدَّهُمُو ... إِلَى الْحَبِيبِ فَلَبَّاهَا بِلا حَصَرِ

فَيَسْأَلُ الْمُصْطَفَى فَصْلَ الْقَضَاءِ لَهُمْ ... لِيَسْتَرِيحُوا مِنَ الأَهْوَالِ وَالْخَطَرِ[٢]

بنفسي يا رسول الله! ما زلتَ تعطي الخلق نفسك وراحتك في الدنيا، وتهديهم سواء السبيل.. جعل الله كرامتك أمام العالمين ظاهرة، إذ أبقى حاجتهم إليك في الدنيا والأخرى.

نعم! وصاحب القلب المنيب يحضر ذلك، ويرى كيف رغب الخلق لسيد البشر في ذلك الموقف العصيب «حتى إبراهيم عليه السلام» خليل الرحمن.. الكل ينتظر الفرج بشفاعته.. وبذلك صار النبي ﷺ في هذا الموقف العظيم بحقٍّ «سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر»..وبات حقًّا بيده «لواء الحمد، ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم عليه السلام فمن سواه إلا تحت لوائه»[٣].

---

(١) الضياء في المختارة (٢٦٩٥).

(٢) مجموع القصائد الزهديات، عبد العزيز السلمان ١/ ٣٩٥.

(٣) أحمد (٢٥٤٦)، وقال محققو المسند: "حسن لغيره".

وقام النبي ﷺ بما طلب منه الخلق أفضل قيام.. إذ ينطلق نبي الله ﷺ فيقوم تحت العرش، فيلقى هناك ما لم يلق ملكٌ مصطفى، ولا نبي مرسل «فَيَشْفَعُ لِيُقْضَى بَيْنَ الْخَلْقِ، فَيَمْشِي حَتَّى يَأْخُذَ بِحَلْقَةِ الْبَابِ، فَيَوْمَئِذٍ يَبْعَثُهُ اللهُ مَقَامًا مَحْمُودًا، يَحْمَدُهُ أَهْلُ الْجَمْعِ كُلُّهُمْ»..ويصف النبي ﷺ للمؤمنين تلك اللحظات الحاسمة فيقول:

> «[فأنطلق فآتي تحت العرش]، فأستأذن على ربي في داره، فيؤذن لي عليه، فإذا رأيته وقعت ساجدًا، [ثم يفتح الله عليَّ، ويلهمني من محامده، وحسن الثناء عليه شيئًا] لم يفتحه لأحدٍ قبلي، فيدعني ما شاء الله أن يدعني فيقول: يا محمد، ارفع رأسك.. سَلْ تعطه.. وقل يسمع، واشفع تُشَفَّع»..

وهكذا «يؤذن للنبي ﷺ عندها، فيقول ما شاء الله أن يقول، فذلك المقام المحمود» الذي يُعطاه ولا يعطى لأحدٍ سواه. قال ﷺ: «فأرفع رأسي، فأثني على ربي بثناءٍ وتحميدٍ يعلمنيه»، وتسمع النبي ﷺ يقول فيما يقول في الثناء على ربه ﷻ فيا حسن ذلك الثناء- قيل له: يا محمد، فقال: «لبيك وسعديك، والخير في يديك، والمهدي من هديت، وعبدك بين يديك، وبك وإليك، تباركت وتعاليت، سبحانك لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، سبحانك رب البيت»[1].

(١) عبد الرزاق في مصنفه (٢٥٦٦)، وابن أبي شيبة (٣١٧٤٤)، وقال في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٧٧): "رواه البزار موقوفًا ورجاله رجال الصحيح".

◆ يا صاحب القلب المنيب:

◆ من النعيم العظيم في موقف الخطب الجسيم: الانتماء إلى أمة محمدٍ ﷺ:

◆ وبعد هذا يا صاحب القلب المنيب:

ألا ترى أن منبع رضاك وطمأنينتك بل فخرك وعزَّك وسؤددك أنك تنتمي إلى أمةٍ قائدها هو ذا المصطفى المجتبى ﷺ.. تنتمي إلى أمةٍ تكون أسبق الأمم خروجًا من أرض المحشر، وأسبقهم إلى أعلى مكانٍ في الموقف، وأسبقهم إلى ظل العرش، وأسبقهم إلى الفصل والقضاء بينهم، وأسبقهم إلى الجواز على الصراط، وأسبقهم إلى دخول الجنة.. فالجنة محرَّمةٌ على الأنبياء حتى يدخلها محمدٌ ﷺ، ومحرَّمةٌ على الأمم حتى تدخلها أمته.

وهناك زاد تفاؤلك بنجاتك وفوزك بالانتماء إلى أمة محمد ﷺ.. إذ رأيت نبيك وهو يرجو «أن تكونوا -معاشر أمة محمد ﷺ- شطر أهل الجنة»[1]..

هذا الحبيب المصطفى، والخليل المجتبى، والشفيع المرتجى ﷺ كانت له دعوةٌ مستجابةٌ يمكنه أن يدعو بها في الدنيا بما أحب.. ولكنه لم يفعل.. ادخرها وصبر على كل أذىً ولأواء قاساها في الدنيا.. كل ذلك لأجل أمته ﷺ.. استمع إليه يبشرك بذلك ويخبرك عن حبه لأمته، وصبره عليها:

(١) البخاري (٦٥٣٠)، مسلم (٣٧٦).

«لكل نبيٍ دعوةٌ مستجابةٌ، فتعجَّل كلُّ نبيٍّ دعوته، وإني خبأت دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة، فهي نائلةٌ إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئًا»(١)..

ويبشر النبي ﷺ عندئذٍ أمته ببشرى فيقول: «يدخل الجنة من هؤلاء سبعون ألفًا بغير حسابٍ»(٢)..أي قلبٍ عظيم بين جنبيك يا رسول الله! حتى في ذلك الموقف العظيم تسأل عنا وتخاف علينا، وتشتاق لنا!.. ترى ما أعددنا شوقًا لك يا رسول الله؟!

ولكن النبي ﷺ في ذلك الموقف يعرف أمته بصورةٍ مجملة لبعد مكانهم لا يدرك منها إلا الكثرة ولا يمكنه تمييزٌ لأعيانهم.. نفسي له الفداء ﷺ.. يتحرق شوقًا ليشاهدك وسائر أمته عن قربٍ.. فإذا ما قربتم منه أمكنه أن يميز أشخاصكم.. وها أنتم قد قربتم.. ها أنتم قد اقتربتم.. يا ساعة اللقاء بأحب الخلق إلى الله كيف تكون؟!.. كيف تكون؟!

فما لعَيْنَيْكَ إن قلتَ اكْفُفَا هَمَتَا ... وما لقلبك إن قلت اسْتَفِقْ يَهِمِ؟

أيحسب الصَّبُّ أن الحُبَّ منكتِمٌ ... ما بين منسجمٍ منه ومضطرمِ(٣)

(١) الحديث عند البخاري (٦٣٠٤)، مسلم (٥١٢)، واللفظ له.

(٢) البخاري (٥٧٠٥).

(٣) البيتان للبوصيري من بردته. ينظر ديوانه، ص: ٢٣٧.

◆ يا صاحب القلب المنيب:

النبي ﷺ يبحث عنك.. يتفقد أمته بين الجموع، ويبشر كلَّ صادق محب ولوع:

عندما يأتي الناس والمؤمنون والأنبياء إلى النبي ﷺ ليشفع لهم حتى يفصل بينهم يقوم النبي ﷺ في ذلك المقام العصيب، فيكون «أول من يؤذن له في السجود يوم القيامة، وأول من يؤذن له برفع رأسه»، ثم يشفع.. فيملأ قلبه الشوق مجددًا برؤية أمته، ويتعرف عليها.. في وقتٍ يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه.. في وقتٍ ينادي فيه منادي الحق: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٧].. في وقتٍ يصيح الأنبياء عليهم السلام فيه «نفسي.. نفسي».. وعلى الرغم من ذلك كلِّه يقوم النبي ﷺ يبحث عن أمته حتى يعرفها.. أيا صاحب القلب المنيب: أبشرْ! أبشرْ! فالنبي ﷺ يعرفك وسائر أمته الآن بين هذه الجموع المتعاظمة!

أيها الساجدون! أيها المتطهرون! أبشروا أنتم المعروفون عند النبي ﷺ المقدَّمون بين يديه:

أجل، هناك يلتمس المخبت الأواب أن يعرفه النبي ﷺ، وقد أعدَّ للأمر عدته.. نعم! فقد كان يُكْثِرُ من الطهارة.. حتى أنه لا يبيت إلا على وضوءٍ، ويكثر من السجود، فقد نصح المصطفى ﷺ أحد أحبابه المتيمين به الراغبين في موافاته يوم القيامة وفي الجنة.. نصحه بكثرة السجود..

◆ **تأمل الآن صاحبَ القلب المنيب في ذلك الموقف العصيب: موقف القيامة..**

بدأت تظهر عليه علاماتٌ رائعةٌ في جبهته وساقيه.. لله ما أجملها وأنقاها! وأصفاها وأبهاها!.. هو فقط وأتباع الحبيب محمد ﷺ من بين الناس في ذلك الموقف العصيب.. ظهرت عليه هذه العلامات.. والناس يغبطونهم عليها.. يَوَدُّون أن لو كانت فيهم.. فما هي يا ترى؟!

إنها الغرة والتحجيل.. أجل سيما أمة محمد ﷺ بين الأمم.. والنبي ﷺ ينظر بين يديه ليميز أمته عن غيرهم.. عندها يا صاحب القلب المنيب يخصك النبي ﷺ بنظرة.. يا لها من نظرةٍ!.. قال رسول الله ﷺ:

«ما من أمتي من أحد إلا وأنا أعرفه يوم القيامة»[1]

ويتبسم ﷺ من فرحه برؤية أمته أهل الغرة والتحجيل.. وذلك مما يُثَبِّتُ الصالحين من أمته في ذلك الموقف العصيب..

فيراكم ﷺ بين الأمم فهنيئًا لكم.. ثم ينظر عن يمينه ليميزكم عن غيركم فيراكم بين الأمم فهنيئًا لكم، ثم ينظر عن شماله ليميزكم عن غيركم فيراكم بين الأمم فهنيئًا.. هنيئًا لكم!

◆ **أيا حبيباه:** هل قتلك الشوق لذلك المقام؟! فاسمع لما يتطلع إليه الطامحون

(١) أحمد (٢٢٢٥٧)، قال محققو المسند: "صحيح لغيره"، وقال الضياء في المختارة (٩٦): "وَهَذَا الْحَدِيثُ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، وَاللهُ أَعْلَمُ، وَلَهُ شَاهِدٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ".

الكرام، فهاهو النبي ﷺ يعلن شارتكم بين كل الأقوام:

«أمتي يوم القيامة غرٌّ من السجود، محجَّلون [بلقٌ]من الوضوء»[١]

إنها «سيماء أمته ﷺ ليس لأحدٍ غيرها»[٢].

والنبي ﷺ له شفاعةٌ خاصةٌ لأمته غير شفاعته لسائر الناس هي من أعظم الشفاعات عند ربه.. ويصف ذلك ﷺ فيقول:

«فشفعت في أمتي.. فما زلت أتردد إلى ربي ﷻ، فلا أقوم منه مقامًا إلا شفعت، حتى أعطاني الله ﷻ من ذلك أن قال: يا محمد، أدخل من أمتك من خلق الله ﷻ مَنْ شهد أن لا إله إلا الله يومًا واحدًا مخلصًا، ومات على ذلك»[٣].

فَيَرْجِعُ طَهَ مُسْتَقِيْمٌ سُرُورُهُ ••• تَخَالُ بِهِ البُشْرَى جَلِيًا ضِيَاؤُهَا

فَيَحْمَدُ مَوْلاهُ الجَلِيْلَ ثَنَاؤُهُ ••• عَلَى نِعَمٍ لا يُسْتَطَاعُ انْحِصَاؤُهَا[٤]

(١) لفظ الترمذي (٦٠٧)، والحديث عند البخاري (١٣٦)، ومسلم (٢٤٦).

(٢) ابن ماجه (٤٢٨٢)، وقال شعيب الأرناؤوط: "إسناده صحيح".

(٣) المختارة (٢٦٩٦) بإسناد صحيح، ورواه أحمد (١٢٨٢٤)، وقال الهيثمي (١٠/ ٣٧٤): "ورجاله رجال الصحيح".

(٤) مجموع القصائد الزهديات، عبد العزيز السلمان ١/ ٥٠٦.

◆ **يا صاحب القلب المنيب: فلتشرق أنوارك الوضاءة.. فقد أشرقت الأرض بنور ربها لفصل القضاء:**

لقد استجاب الله -عزَّ جاره- لشفاعة نبيه ﷺ.. وأمر بالاستعداد لفصل القضاء بين العباد.. عندها بدأت أفواج الملائكة تتنزل، والبيان القرآني يصف بدقةٍ مثيرةٍ تلك اللحظات، إذ يقول ربي -عزَّ جاره-: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفرقان:٢٥]، فتتنزل الملائكة، وتأخذ مصافَّها.. ثم حدث أمرٌ عظيمٌ؛ إذ انشقت ﴿ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾ [الحاقة:١٦]..

السماء.. لِمَ انشقت ووهت أركانها؟.. لمَ انفطرت وتداعت؟.. ووضح الأمر إذ رأيت السماء انشقت ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحاقة:١٧]... انظر هناك: انشقت السماء، ﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢٢] ﴿فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة:٢١٠]، فيحمل عرشه يومئذ ثمانية... فسبحانه ذي الكبرياء والملكوت، والعظمة والجبروت، سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت، سبحانه أبد الأبد.

وعندها تمَّ النور الحق، وجاء الفصل ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾.. أشرقت! نعم أشرقت الأرض بنور ربها يوم القيامة ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾.. وُضِعَ كتابُ الأعمال، ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾..جيء بالنبيين يشهدون على الأمم بأنهم بلغوهم رسالات الله إليهم.. كما جيء بالشهداء من الملائكة الحَفَظَة على أعمال العباد من خيرٍ

وشرٍّ، ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٦٩﴾ [الزمر:٦٩]..

◆ **فيا طالب النجاة:** أَبْصِرْ العباد عندها وهم يَحِنُّون أشد الحنين إلى الرحمة والفضل.. لا إلى القسط والعدل.. إذ سبحان ربي فما عبده العابدون حق عبادته.. فكيف ترى المفرطين؟!

شيءٌ عظيمٌ.. وخطبٌ جسيمٌ.. تعرضون لا تخفى منكم خافية:

عندها نادى منادي الحق جل جلاله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨﴾ [الحاقة: ١٨].. إنه يومٌ عظيم.. يدعو الله الناس فيه لفصل القضاء.. ولكن الرزية كل الرزية.. والمصيبة كل المصيبة أن الأمر: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨﴾ [الحاقة: ١٨].. "فالكل مكشوف، مكشوف الجسد، مكشوف النفس، مكشوف الضمير، مكشوف العمل، مكشوف المصير. وتسقط جميع الأستار التي كانت تحجب الأسرار، وتتعرى النفوس تعري الأجساد، وتبرز الغيوب بروز الشهود.. ويتجرد الإنسان من حيطته ومن مكره ومن تدبيره ومن شعوره، ويفتضح منه ما كان حريصًا على أن يستره حتى عن نفسه! وما أقسى الفضيحة على الملأ! وما أخزاها على عيون الجموع! أما عين الله ﷻ فكل خافية مكشوفة لها في كل آن. ولكن لعل الإنسان لا يشعر بهذا حق الشعور، وهو مخدوع بستور الأرض. فهاهو ذا يشعر به كاملًا وهو مجرد في يوم القيامة. وكل شيء بارز في الكون كله، الأرض مدكوكة مسوَّاة لا تحجب شيئًا وراء

نتوء ولا بروز، والسماء متشققة واهية لا تحجب وراءها شيئًا، والأجسام معراة لا يسترها شيء، والنفوس كذلك مكشوفة ليس من دونها ستر وليس فيها سر!

ألا إنه لأمر عصيب، أعصب من دك الأرض والجبال، وأشد من تشقق السماء! وقوف الإنسان عريان الجسد، عريان النفس، عريان المشاعر، عريان التاريخ ، عريان العمل ما ظهر منه وما استتر، أمام تلك الحشود الهائلة من خلق الله، من الإنس والجن والملائكة، وتحت جلال الله وعرشه المرفوع فوق الجميع.

وإن طبيعة الإنسان لمعقدة شديدة التعقيد؛ ففي نفسه منحنيات شتى ودروب، تتخفى فيها نفسه وتتدسس بمشاعرها ونزواتها وهفواتها وخواطرها وأسرارها وخصوصياتها، وإن الإنسان ليصنع أشد مما تصنعه القوقعة الرخوة الهلامية حين تتعرض لوخزة إبرة، فتنطوي سريعًا، وتنكمش داخل القوقعة، وتغلق على نفسها تمامًا.

إن الإنسان ليصنع أشد من هذا حين يحس أن عينًا تدسست عليه فكشفت منه شيئًا مما يخفيه، وأن لمحة أصابت منه دربًا خفيًّا أو منحنى سريًّا! ويشعر بقدر عنيف من الألم الواخز حين يطلع عليه أحد في خلوة من خلواته الشعورية..

فكيف بهذا المخلوق وهو عريان، عريان حقًا، عريان الجسد والقلب والشعور والنية والضمير، عريان من كل ساتر، عريان! كيف به وهو كذلك تحت عرش

الجبار، وأمام الحشد الزاخر بلا ستار؟! ألا إنه لأمر، أمرٌ من كل أمر!!!"[١].

لطالما أرق هول هذا المشهد ليل الصالحين، وأسهر عيون العابدين، وألهب صدور المخبتين.. قال مالك بن دينار رحمه الله:

"رَأَيْت فِي الْبَادِيَة فِي يَوْم شَدِيد الْبرد شَابًّا عليه ثَوْبَان خَلَقَان، وَعَلِيهِ آثَار الدُّعَاء وأنوار الْإِجَابَة فعرفته، وَكنت قبل ذَلِك عهدته فِي الْبَصْرَة ذَا ثروة وَحسن حَال، وَكَانَ ذَا مَال وآمال. قَالَ: فَبَكَيْت لما رَأَيْته على تِلْكَ الْحَال، فَلَمَّا رَآنِي بَكَى وبدأني بِالسَّلَامِ، وَقَالَ لي: يَا مَالك بن دِينَار، مَا تَقول فِي عبد أبق من مَوْلَاهُ؟ فَبَكَيْت لقَوْله بكاء شَدِيدًا، وَقلت لَهُ: وَهل يَسْتَطِيع الْمِسْكِين ذَلِك، الْبِلَاد بِلَاده، والعباد عباده، فَأَيْنَ يهرب الْمِسْكِين؟! فَقَالَ يَا مَالك، سَمِعت قَارِئًا: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة: ١٨] فأحسست في الحال بنار وقعت بين ضلوعي فلا تخمد ولا تهدأ من ذلك اليوم، يا مالك أتراني أُرحمُ وتُطفأُ هذه الجمرة من قلبي"[٢].

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٦٠.

(٢) العاقبة في ذكر الموت، ص: ٧٤.

الأنبياء والرسل عليهم السلام يشهدون.. لا تسل حينها عن الهلع والفزع:

يصف ربي -عز جاره- ذلك الموقف فيقول: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ [الإسراء:٧١] بنبيهم.. يدعو ربنا القهار كلَّ أمةٍ وحدها.. تتقدم مع نبيها ليتم فصل القضاء.. وجاء إمام كل أمةٍ من الأمم، وذلك ليشهد عليهم، ومنادي الحق ينادي:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [يونس:٤٧]

ورأيت عند ذاك هلعًا شديدًا.. فبالرغم من أن الناس أرادوا فصل القضاء، والتخلص من مواقف الهول والبلاء في يوم الطامة الكبرى.. فإنهم بدؤوا يرتجفون من عرض أعمالهم، وبدء حسابهم.. عندها رأيت الرعب يعمهم حتى لا يعرف إنسان إنسانًا ولو كانت أمٌ مع ابنها، أو أخٌ مع أخيه، أو زوجٌ مع صاحبته وبنيه.. ارتجفوا وخافوا ثم أُسْقِطَ في أيديهم لترى قلوبهم واجفةً، وأبصارهم خاشعةً ذليلةً.. ثم لم تحملهم أقدامهم فرأيت ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ ..جاثيةً على ركبها.. لا يحملها جسدها، ولا يطيقها بدنها.. أجل فـ ﴿كُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾، ومنادي الحق ينادي عليهم: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الجاثية:٢٨].. ولربما ظلوا خرسًا.. يتساءلون خائفين قلقين.. فتسمع التساؤلات همسًا: كيف يحصى كل صغيرة وكبيرة مما كنا نعمل..؟!

فيكون قاطع الجواب.. مخيفًا لمن ارتاب ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية:٢٩]..وهناك رأيت من كان في غفلةٍ عن البعث والحساب..

يرى الكتاب.. ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف:٤٩].. حتى أصغر الصغائر.. مكتوبة.. نعم! ترى أصغر الصغائر ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝٢٢﴾ [ق: ٢٢]..ومنادي الحق ينادي: ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ [غافر:١٧].. الكل سيسأل لا مفر من ذلك.. ولا مهرب هنالك.. ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

..وهنا أُسقط في يدي الجميع حتى صاحب القلب المنيب.. اعتراه خوفٌ شديدٌ.. فالقضاء بالقسط.. قضاء الله لا بد أن يكون بالعدل.. ولربما يكون معنى العدل هنا الهلاك.. كم يخشى المرء معه من الهلاك.. إذ من ذا الذي وفَّى ما أمر الله به، أو أدَّى شكر أنعمه.. مَنْ.. عدا المعصوم ﷺ؟

◆ **ولربما تساءل صاحب القلب المنيب في نفسه متلهفًا:**

كم من نعمةٍ أنعم الله بها عليَّ.. قلَّ له عندها شكري!

كم من بليةٍ ابتلاني الله بها.. قلَّ له عندها صبري!

كم من تقصيرٍ صدر مني.. فسترني!

كم من زلةٍ بقيت حسرتها في قلبي، لكنها عن أخواتها لم تردعني!

كم من معصيةٍ قارفتها وربي يُسْبِلُ عليَّ ستره فلم يفضحني!

يومئذٍ أيها البار القانت مَرَّ شريط الحياة سريعًا أمامك.. تتنابك فيه الذكريات المتتالية.. ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ۝٢٣﴾ [الفجر:٢٣] وتتساءل عندها:

كم من صلاةٍ غَفَلْتُ عنها في الليل بلهو دنيا!

كم من يومٍ غفلت عن صيامه بتعبٍ لا يساوي من عظائم هذا اليوم عشر معشارٍ!

كم من مظلومٍ لم أنصره!.. كم من جائعٍ لم أطعمه!.. كم من كلمة خيرٍ سكت عنها!.. كم من كلمة سوءٍ اجترأت عليها!

وشريط الذكريات يمر سراعًا.. فهذه كلمةٌ لا ترضي الله، وهذا غضبٌ لم يكظم، وهذا حبٌّ لغير الله، وهذه نظرة حرام، وتلك فعلة سوءٍ واقتراف آثام...آه!

واحر قلباه من ذكريات الآلام!.. وقد سَطَّرَتْ كلَّ صغيرةٍ وكبيرةٍ الأقلام.. تالله لا مفلح في ذلك الموقف العصيب، إلا من أخذ نفسه بالتأنيب، وقلبه بالمحاسبة والتهذيب.. قال قدوة المربين الحسن البصري رحمه الله:

"إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة من همته"(١).

◆ أيا صاحب القلب المنيب:

لعلك هناك تتساءل: هل هناك عملٌ أستحق به الجنة؟ أهناك عملٌ أجزم فيه بالإتقان والإخلاص ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ﴾. ومنادي الحق ينادي: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ [الفجر:٢٣]، ولربما تمنيت بلهفةٍ فقلت: ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾﴾ [الفجر: ٢٤]..

أيا عيناه: أسعديني بدمعك الرقراق رهبةَ الخذلان يوم الفراقِ

أيا عيناه: أسعديني بدمعك الرقراق رهبةَ الخذلان يوم الفراقِ

(١) إغاثة اللهفان ١/ ٧٨.

ومجيء جهنم تزفر يزيد من رعب العباد.. ولكن الجنة التي أزلفت للمتقين غير بعيدٍ تجعل الشوق يحرق الأكباد.. وتخفف عن الإنسان فيتشوف نحوها راجيًا أن تشمله المغفرة فلعله ينجو أو يكاد.. ولكن الذكريات ما زالت تنهال.. نشطت الذاكرة نشاطًا عظيمًا فتذكر الإنسان كلَّ زلةٍ كان يعملها في الخفاء.. في الليلة الظلماء في القاعة الصماء.. نشطت لتعبث بنفسه وفكره.. يا للهول! فإن النبي ﷺ قد ذكر أنه لو أن هناك «رجلًا يُجَرُّ على وجهه من يوم ولد إلى يوم يموت هرمًا في مرضاة الله تعالى لحقره يوم القيامة»(١).. لو أنه يجر على وجهه من أول لحظةٍ خرج إلى الخلق إلى يوم يموت.. كلُّ ذلك يجر على وجهه في طاعة الله دون أن يكون له معصيةٌ واحدة.. لما عدَّ ذلك عملًا عظيمًا، بل سيحتقره يوم الحساب عندما يقيسه في جنب نعم الله وآلائه.. فكيف بالمقصرين المفرطين؟!

اللهم رحمتك نرجو.. مغفرتك نبغي.. يا أرحم الراحمين.

◆ يا رحمة ربي.. قرة عيني.. ومبعث رجائي وحبي:

إلا أن صاحب القلب المنيب بقي متعلقًا بأمل رحمة الله ﷻ، وفضله السابغين عسى أن يشملاه.. لعله رجع يبتهل ويدعو الرحيم الغفور:

قُـرَّةَ عينـي: لا بدَّ لي منـك وإنْ ◆◆◆ أوحـشَ بينـي وبينـك الزَّلـلُ

قُـرَّةَ عينـي: أنـا الغريـقُ فَخُـذْ ◆◆◆ كـفَّ غريـقٍ عليـك يَتَّـكِلُ(١)

(١) البيتان ليحيى بن معاذ. لطائف المعارف لابن رجب، ص: ٢٨٥.

لقد عاش صاحبنا حَسَنَ الظن بمولاه.. محسنًا في ما أمره به مجتنبًا ما عنه نهاه.. وهاهو الآن يتدرع ببقيةٍ من حسن ظنٍّ بربه الكريم ومولاه البر الرحيم ﷻ.. وهذا ديدن الصالحين من عباد الله المخلصين.. يقول حاتم بن سليمان رحمه الله: "دخلنا على عبد العزيز بن سليمان رحمه الله وهو يجود بنفسه، فقلت: كيف تجدك؟ قال: "أجدني أموت"، فقال له بعض إخوانه: على أية حال رحمك الله؟ فبكى، ثم قال: "ما نعوِّل إلا على حسن الظن بالله"، قال: "فما خرجنا من عنده حتى مات"[1].

وقال مالك بن دينار رحمه الله:

"رأيت مسلم بن يسار رحمه الله في النوم بعد موته بسنة، فسلمت عليه، فلم يرد عليَّ السلام، فقلت له: لم لا ترد عليَّ السلام؟ قال: وكيف أرد عليك وأنا ميت؟ فقلت له: وماذا لقيت بعد الموت؟ قال -ودمعت عينا مالك رحمه الله عند هذا القول-: لقيت أهوالًا وزلازل وعظائم وشدائد، قال مالك رحمه الله: فقلت له: فما كان بعد ذلك؟ قال: وما تراه يكون من الكريم إلا الكرم؟ قَبِلَ منا الحسنات، وغفر لنا السيئات، وضمن عنا التبعات، كما كان حسن ظني به"[2].

(١) المحتضرين، لابن أبي الدنيا، ص: ١٥٤.

(٢) العاقبة في ذكر الموت، ص: ١٤٧.

وحانت ساعة العرض على الجبار.. ثم إلى جنة أو نار:

وعرضت الأمم واصطفت ونادى المنادي: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء:٤١]، ورأيت الذين كفروا يومئذ كما قال ربي -عزَّ جاره: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النساء:٤٢]..

نعم! هذا وقت شهادة الرسل على أممهم.. ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ [المرسلات:١١ - ١٥].

ولربما تذكرتَ أيا صاحب القلب المنيب.. حينها وأنت ممن شُرِّفت بأن تكون من أمة محمدٍ ﷺ.. تذكرتَ ما نزف دموع عينك خشيةً وقلقًا.. تذكرتَ أن النبي ﷺ بكى عندما تلا عليه ابن مسعودٍ رضي الله عنه هذه الآية! أجل! بكى وهو الشاهد فكيف سيَفْعَلَ المشهود عليه؟!.. يا له من موقفٍ تسيل له الأدمع الحرى!.. ولكن هل ادخرت لهذا الموقف مركب النجاة، وطوق السلامة؟.. كما قال الأبرار السابقون:

إِنِّي ادَّخرتُ لِيَومِ ورد مَنِيَّتِي ◆◆◆ عندَ الإلهِ مِنَ الأمورِ خَطِيرا

وَهُوَ الْيَقِين بِأَنَّهُ الْأَحَد الَّذِي ◆◆◆ ما زِلتُ فيه بفضله مغمورا

وشهادتي أَنَّ النَّبِيَّ مُحَمَّدا ◆◆◆ كَانَ الرَّسُولَ مُبَشِّرًا وَنَذِيرا

ومَحَبَّتِي آلَ النَّبِيِّ وصَحْبِهِ ◆◆◆ كُلًّا أراه بالجميلِ جديرا

وجميلُ ظَنِّي بالإلهِ لِمَا جَنَتْ ◆◆◆ نفسي، وإن حَرَمَتْ عليَّ سرورا[1]

(١) هذه الأبيات لأبي سعد إسماعيل بن أَحْمَد الإسماعيلي. ينظر: تاريخ جرجان، ص: ١٤٧.

المشهد الثالث

وُضع الكتاب.. وبدأ الحساب

بداية الحساب.. واحر قلباه: من يكون صاحب الزلفى من ربه.. من له حسن مآب؟

في موقف الحساب ينادي منادي الحق: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [الكهف: ٤٩] فبدأ معه الحساب.. ورأيتَ هناك المجرمين مشفقين مما فيه.. ينظرون إليه بعينٍ ثاقبةٍ.. ويرون ما فيه بكل سهولةٍ، ويؤمرون بالنظر فيه.. أفيتعامى أحدهم عن رؤية صغائره وكبائره؟

كلا! فمنادي الحق يناديهم: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق:٢٢].. ينظرون إليه ويئنُّون ويقولون: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف:٤٩]..فمنهم من يؤتى كتابه بشماله، ومنهم من تُلْوى يده خلف ظهره ثم يُعطى كتابه، وربما رأيته تنزع يده من صدره إلى خلف ظهره ثم يعطاه، أو يحاول إخفاء يده الشمال خلف ظهره، ولكن الكتاب يصله[1]..نعم.. ولم تُمَيِّز بين الفريقين، وربما خشيت أن المسلم العاصي المصر يعطى كتابه بشماله، والكافر من وراء ظهره[2].

(١) على اختلاف تفسير ﴿وراء ظهره﴾.

(٢) انظر: فيض القدير ٢/ ١٧١.

لعلك يا خاطب الجنة! أشفقت من هذا أشد الإشفاق.. انظر لقلبك المرتعد المرتجف وسل الله العافية.. ومنادي الحق ينادي بما يدفعك لاهتبال وقتك في ركعتين:

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝٧٤ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ۝٧٥﴾ [طه: ٧٤، ٧٥].

وفي ذلك الموقف العصيب المحرج.. مع القلق والترقب، والخوف الرهيب.. تبدأ حركة الحساب العظيمة..

تخيل نفسك وقد قرع سمعك النداء إلى العرض، إذ يؤخذ بناصيتك، وقدمك لا يكاد من القلق يستقر على الأرض، فتقاد وفؤادك مضطرب، ولُبُّكَ طائر، ووجهك خائب مكتئب. فرائصك مرتعدة، وجوارحك فزعة خائرة، ونفسك متقدة. لونك متغير، وفكرك متحير، يظلم العالم حولك من شدة الهول، وتتذكر ما أسرفت فيه على نفسك دون مراقبة لذي الإنعام والطَول. تصوَّرْ نفسك! وأنت تتخطى الصفوف، وتنظر إليك ملايين الناس وهم وقوف، رفعوا إليك أبصارهم، وتبعتك همساتهم وأفكارُهم، فتوهم نفسك أنك في أيدي الموكلين بك على هذه الصفة حتى انتهى بك إلى عرش الرحمن، فرموك من أيديهم، وناداك الله سبحانه وتعالى بعظيم كلامه: يا ابن آدم ادن مني، فدنوت منه بقلب خافق محزون وجل، وطرف خاشع ذليل وفؤاد منكسر، وأعطيت كتابك الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فكم لك من فاحشة نسيتها فتذكرتها؟ وكم من طاعة غفلت عن آفاتها فانكشف لك

عن مساويها؟.. فليت شعري بأيٍّ قدم تقف بين يديه؟! وبأيٍّ لسان تجيب؟! وبأيٍّ عقل تعقل ما تقول؟!(١).

◆ **أيها الخلق: الوزن يومئذٍ الحق.. الوزن يا أيها الناس.. ألا هل من يدرك نفسه من الأذكياء الأكياس؟**

تبدأ حركة الحساب بوزن الأعمال.. فانظر إلى ذلك ببصيرةٍ وقلبٍ خاشعٍ، وتخفف من الأثقال..

◆ **التفت إلى من يشك.. ويذيع السؤال:** كيف يتم القضاء؟ وكيف يكون حقًا كاملًا، وعدلًا تامًا خالصًا ذا صفاء؟

الآن أمام عينيك يتمُّ ذلك.. فارقب الوضع وسل الله منازل السعداء.. إذ بهيئةٍ عظيمةٍ قد نُصِبَتْ أمام الناس، فقد صدر الأمر الإلهي فوضع الله ﷻ ﴿ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧].. إنها الموازين؟

◆ **لربما رجفت الأفئدة وتساءلت قلقةً مذعورةً: موازين.. ماذا تزن؟**

ويأتي الجواب يخطف من الغَفَلَةِ الألباب.. ويودُّ المجرم يومئذٍ أن لو رجع إلى تراب.. يأتي الجواب: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

(١) إحياء علوم الدين بتصرف ٤/ ٥١٩.

وَيُرْسِلُ اللهُ صُحْفَ الخَلْقِ حَاوِيَةً ◆◆◆ أَعْمَالَهم كُلَّ شَيْءٍ جَلَّ أَوْ صَغُرَا

فَمَـنْ تَلَقْتُـه بِاليمْنَـى صَحِيفَتُـهُ ◆◆◆ فَهُوَ السَّعِيدُ الذِي بِالفَوْزِ قد ظَفِرَا

وَمَـنْ يَكُنْ بِاليدِ اليسْـرَى تَنَاوَلَهَا ◆◆◆ دَعَا ثُبُورًا وَللنِّيرَانِ قَدْ حُشِـرَا[1]

أجل! أيها الخلائق من البررة والفجرة: بهذا الوزن الدقيق يتم العدل الحق ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ [الأنبياء:٤٧] مهما صغر أو كبر.. لا تظلم نفس شيئًا حتى ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ [لقمان:١٦] حتى حبة الخردل يأتي بها الله ﷻ.. ليس شيءٌ بضائع عند ربي، ألم يقل سبحانه وهو لم يزل معتمَدي وحسبي: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾ [القمر: ٥٣].

ولربما كابر الجهلة خائفين فقالوا: وكيف يوزن صغير الأعمال وكبيرها؟! كيف يمكن أن يتأتى لأحدٍ أن يحيط بكل شيءٍ علمًا؟! وهل الملائكة الحفظة الكتبة إلا مخلوقاتٌ من المخلوقين فأنى لها أن تحيط بالصغير والجليل من أفعال العالمين؟.. عند ذاك يعلن الحق تبارك وتعالى أن ذلك الحساب على الله ﷻ، والله ﷻ قد أحاط بكل شيءٍ علمًا، وأحصى كل شيءٍ عددًا.. منادي الحق ينادي: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء:٤٧]..

نعم فـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾..إلا أن رحمته وفضله لمن بادر بالصالحات.. إن هذه الذرة لو كانت ﴿حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء:٤٠]

(١) ديوان ابن مشرف، ص: ٣٥.

فضلًا ورحمة.. منة وتكرمًا.. اللهم إنا نسألك من فضلك ورحمتك.

وأسدل الستار بنداء الحق بيانًا للحكم العدل الحق المبين والوزن الدقيق: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ من خيرٍ أو شرٍ.. وهو -ربي سبحانه- ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الزمر: ٧٠] فكيف تكون أعمالنا؟ كيف تكون؟

◆ **أيا حبيب الجنة:** فهل من مبادرةٍ إلى ركعتين في عتمة الليل.. عسى تدفع عنك في ذلك اليوم الحرون؟.. ألا هل من دمعةٍ تُزْجَى رغبًا ورهبًا.. تثقل الموازين ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الشعراء: ٨٨]؟.. أيها السابق بعينٍ بكاءة.. وهمةٍ متوقدة.. مالك سبقتنا.. حتى تركتنا خلفك حسرى:

أَمِنْ حدثانِ الدَّهر أنت مُرَوَّعُ ◆◆◆ وعينُك من فَرطِ الصَّبابةِ تدمعُ

لئن هَمَلَتْ عيناك من لوعة الأسى ◆◆◆ لَمِثْلُ الذي أذرى دموعَك يفجعُ

نفيتَ الكَرَى حتى تبيتَ مُسَهَّدًا ◆◆◆ تراعي نجومَ الليلِ.. مالك مهجعُ

أفض عبراتٍ من شؤونك وانتحِبْ ◆◆◆ لخطْبٍ جليلٍ.. إن قلبَك مُوجَعُ[1]

(١) لسليمان بن معبد..انظر: الجرح والتعديل ١/ ٣١٧.

ساعة تطاير الكتب: نفسٍ قلقة.. ونبضٌ فزعٌ.. أو روحٌ متشوفةٌ:

هناك يا راجي النجاة.. اليوم العظيم الأهوال.. الشديد المغارم والأثقال: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ [الإسراء:٧١].. ندعوهم بنبيهم فهو إمامهم.. وندعوهم بكتاب أعمالهم.. فهو الإمام الذي فيه كل صغيرةٍ وكبيرةٍ من الأعمال.. أوليس قد أخبر ربنا الجليل ذو القوة المتين.. في دنيا الاختبار المبين: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [يس:١٢].. فهاهو ذا الإمام المبين.. فيا فوز المستغفرين.. الركع الساجدين.

فاذكر عيانًا ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ [الإسراء:٧١].. هناك انطلق جمع أمة محمدٍ ﷺ يؤمهم النبي ﷺ.. فإن كل قومٍ بمن يأتمون به من أنبيائهم وقادتهم.. فأهل الإيمان ائتموا بالأنبياء عليهم السلام، وأهل الكفر ائتموا بأئمتهم من الكفرة والطواغيت.. إنهم الذين قال فيهم الحق ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص:٤١].

ولما وقف الجمع في موقف الحساب العظيمِ بمكانه، العظيمِ بزمانه، العظيمِ بعدد المحاسبين فيه.. العظيمِ بشهوده.. وهو ربي -عزَّ جاره- العظيمُ.. العظيمُ بجبروته.. العظيمُ بقهره.. العظيمُ بعدله.. العظيمُ بفضله.. العظيمُ بملكه.. إنه ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة:٤].. لما وقفوا وبدأ الحساب «تطايرت الكتب»: كتب أعمالهم.. فتحيرت أولو الألباب.. وفقد الناس الصواب.. وخافوا الهلكة والعذاب.. فمن الناس من أُعطي كتابه بيمينه فيا لسعادته!.. يا لعظيم حبوره ووفادته!.. ومنهم من أعطي كتابه بشماله.. يا لهول التعاسة!.. يا للبؤس! ويا خزي الانتكاسة!

اهتف رافعًا يديك يا راجي النجاة: اللهم عافني، اللهم أجرني.

اهتف معي بحقٍّ أيا أخاه: ربنا.. ربنا ﴿وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ١٩٤﴾

[آل عمران: ١٩٤].

ومنهم من أوتي كتابه وراء ظهره.. يا فظاعة المصير!.. فمن يجيرهم من ذلك المستقر؟.. من المجير؟.. أيها المشفق من عذاب ربه.. أَجْرِ همومك الآن في الدنيا حول هذا المشهد.. عسى يحركك ذاك للطاعة فتفوز وتسعد.. عندها بحقٍّ.. أَنْشِدْ:

باتت همومي تسري طوارقُها ••• أكفُّ عيني.. والدَّمعُ سابِقُها

هناك «عند تطاير الكتب فإما أن يعطى بيمينه أو يعطى بشماله».. لا «يذكر الحبيب حبيبه».. ولمثل هذا ينبغي أن يطرق البكاءُ أعينَنا الجافة، وقلوبَنا القاسية.. كما طرق عين الصديقة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وقَلْبَها وهي ما زالت في الدنيا فقالت: ذكرت النار فبكيتُ.. فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ:

«أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحدٌ أحدًا: عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أو يثقل، وعند الكتاب حين يقال: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ١٩﴾ [الحاقة: ١٩] حتى يعلم أين يقع كتابه أفي يمينه أم في شماله أم من وراء ظهره، وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم»[1]..

(١) أحمد (١١١٢٧)، أبو داود (٤٧٥٤)، وحسَّن محققو المسند إسناده، ولفظ: (تطاير) عند أحمد، وأصل الحديث مشهورٌ ثابتٌ.

وعندها ترى فريق الخاسرين.. ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ﴾ [المعارج: ٤٤]..كانوا في الدنيا يختالون ويتكبرون.. فرأيتهم في هذا اليوم الذي ﴿تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ٤٢﴾ [إبراهيم: ٤٢]..رأيتهم: ﴿مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ﴾ [إبراهيم: ٤٣] يعلوها الذل والانكسار.. رأيتهم ﴿لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ﴾ [إبراهيم: ٤٣] فزعًا من المهيمن الجبار.. رأيتهم ﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ٤٣﴾ [إبراهيم: ٤٣] فارغةً خوفًا ورعبًا من عذاب الملك القهار.. وهم ينتظرون أن تغشى وجوههم النار..

من صور الحساب ستر جميل.. وعطاء جزيل من رب جليل[1]:

وفي ذلك الموقف العظيم، والخلق يترقبون، والقلوب وجلةٌ، والنفوس مشفقةٌ قلقةٌ من نتيجة الاختبار الحق في ذلك الموقف: يرى الناس مؤمنًا دُعِيَ «للحساب يوم القيامة [فَيُعطى كتابه بيمينه]..نعم..«يعطى كتابه بيمينه في سترٍ من الله» دون أن يطلع أحدٌ على ذلك.. إذ «يستره منها، فما على الأرض خليقةٌ ترى من تلك الذنوب شيئًا، وتبدو حسناته فودَّ أن الناس كلهم يرونها»..وقد نُصبت الموازين.. بدأ يرى أعماله في صحيفته وسجلاته المنشورة كما يراها مجسدةً أمامه.. عندها يقال له: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤﴾ [الإسراء:١٤]..ويبدأ بالقراءة.. فينظر في كتابه.. فإذا حسناته باديةٌ للناس.. يا لكرم الله!.. يا لحلم الله!.. يا لعفو الله!.. ولأنه مؤمنٌ فإن رحمة الله تدركه.. فلا يرى الناس إلا حسناتِه.. وأما سيئاته فيراها هو ذا.. ويسترها

(١) انظر: البخاري (٤٦٨٥)، مسلم (٢٧٦٨)، مجمع الزوائد (١٠/ ٣٥٠).

الله من الناس فلا يرونها، فلا تدري أفرحته بستره بين الخلق أعظم.. أم فرحته بإظهار حسناته..«فيقرأ سيئاته.. فكلما قرأ سيئةً تغير لونه»، وركبه الخجل، وعلاه الوجل، وظن أنها المهلكة.. يا له من حسابٍ دونه كلُّ حسابٍ!.. ويا لها من لحظاتٍ لا يعرف الإنسان فيه أحدًا إلا ما يرى من أعماله، أو ما يستذكر من أفعاله!..«حتى يمر بحسناته فيقرأها، فيرجع إليه لونه»..ثم ينهال عليه من الفرح ما لا يمكن إخفاؤه.. إذ يرى هناك الكرم الإلهي يتحدر عليه.. بانهمار سيول الحسنات ومضاعفتها.. بعد أن كاد يوقن بالهلاك؛ فقد ضاعف الله له الحسنة فصارت بعشر حسناتٍ إلى أكثر من ذلك.. لكيلا «يقول: كانت لي حسناتٌ فلم تُذْكَر.. فأحبَّ الله أن يُرَيه عمله كله».. ويقرأ سيئاته فيعرض عليه ربه عمله كله فيما بينه وبينه.. فيعترف بسيئاته لا ينكر منها شيئًا وقلبه يكاد يطير وجلًا.. وهناك.. انظر إليه.. وهو «يدنو من ربه، فيضع عليه كنفه، فيقرره فيقول-له ربه-: عملتَ كذا؟.. وعملتَ كذا؟.. يقول: نعم! يا رب»، ويتابع وهو قلقٌ مشفقٌ، أو باكٍ وجلٌ: «فيقول: نعم! أي رب عملتُ.. عملتُ.. عملتُ».

إلى الله نشكو الذَّنبَ ذنبًا أذاقنا ◆◆◆ مرارةَ حرمانٍ وجفوةَ جانِبِ

وأَوْحَشَنَا حتى كأنَّا بشؤمِهِ ◆◆◆ مِنَ الهَمِّ بعدَ الذَّنبِ ضربة لازِبِ

فغُفْرًا إلهَ الكونِ مُنَّ برحمةٍ ◆◆◆ على كلِّ أوَّابٍ إليك وتائبِ

ومَنْ يكتسبْ عفوَ الإلهِ وقربَهُ ◆◆◆ فقد حازَ في الدَّارين خيرَ المكاسِبِ

ومَـنْ رامَ فضلَ اللهِ أعطاهُ سُـؤْلَهُ ... ونالَ بفضلٍ منهُ عُلْيَا المراتِبِ

فَخُـذْ بنواصينـا إلى الخيـر ربَّنا ... وأصلِحْ لَنا مِنْ شأننا كُلَّ خارِبِ

وعامِلْ بلُطْفٍ منـكَ أهلًا وجيرةً ... وكلَّ مُحِبٍّ رامَ قُرْبًا وراغِبِ[1]

إنها الرحمة، والكرم الإلهي: فيا شوق لا تبعد، ويا دمع فض وزد:

كيف يكون قلبه وهو يعترف؟ كيف فؤاده وهو يُقِرُّ بما عمله؟ يا له من موقفٍ تشيب له النواصي!.. ولكنَّ شيئًا يبقى في القلب: إنها رحمة الرب جلَّ وعزَّ.. إنه ربي عزَّ جاره:

يـا إلهـي إنِّـي مُـقرٌّ بذنـبي ... وخطايـا جـوارحٍ مسـرفاتِ

ما جـهلتُ المقـامَ أو كان قلبي ... مُشْـرَئِبًّا إلـى دروبِ العصـاةِ

ضعفُ نفسي وحسـنُ ظني بربي ... جـرَّني لانتهـاك المظلمـاتِ

وهكذا لا يجحد.. بل يعترف وينتظر فرج الرحمة، ويشفق من الفضيحة والخزي.. عند ذاك تنزل الرحمة.. فيقول الله ﷻ له: «فإني قد سترتُ عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم.. فيُعْطَى صحيفة حسناته».. وهكذا «يجد في آخر ذلك كله أنه مغفورٌ لك، وإنك من أهل الجنة» فأيُّ فرحةٍ يجدها؟ وأيُّ ابتهاجٍ يسيطر عليه؟ وأيُّ إشراقٍ يظهر على أسارير وجهه.. ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾ [القلم:٤٩]؟.. يا لسعادته فقد غفر الله له ذنوبه!

(١) الأبيات لسعيد بن دحباج -وفقه الله-. ينظر ديوانه "عتب القوافي"، ص: ٥٤.

ولكن على الرغم من ذلك كله.. رجَع مُكَدَّرًا.. يُكَدِّرُ عليه ما رأى من سيئاتٍ.. يخاف أن تنشر على الملأ.. عندها يرجع « ينظر: فإذا سيئاته قد بُدِّلَتْ حسناتٍ»، فيملأ الفرح أركانه.. وتأمَّله وهو ينبسط وجهه، ولا يعرف كيف يصنع بنفسه من السعادة!

وينظر إلى ميزانه.. وتعود رعشات القلق، ورجفات الإشفاق إلى مساورته «عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أو يثقل».. فتكون نتيجة الفرح فقد ثقل ميزانه بالحسنات، ورجح على ما اقترفه من سيئات.. هناك رأيتَ أعلامَ الفرح ترفرف حوله، وسمعتَ هتافاتِها: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨﴾ [الأعراف:٨]..يا الله! لقد سعد سعادةً لا يشقى بعدها أبدًا ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١﴾ [القارعة:٧].. فيا بشراه! ثم يا بشراه!

دورك الآن.. هل تعلن راية الفرح: تعالوا.. تعالوا.. فاقرؤوا كتابيه:

وانتظر صاحب القلب المنيب دوره قلقًا مشفقًا، وهو يودُّ أن يكون الأمر كما كان لسابقيه من المصطفين الأخيار: عرضٌ للأعمال وليس حسابًا.. بل يرجو ويبتهل أن يكون ﴿حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ [الانشقاق:٨]، فيعرض عليه الكتاب عرضًا يُظهر حسناته ويستر سيئاته.. فإن الحساب اليسير أن «يُنْظَرَ فِي كِتَابِهِ وَيُتَجَاوَزَ عَنْهُ» والنبي ﷺ يعلق على المشهد قائلًا: «ذاك العرض.. ولكن من نُوقِش الحساب يومئذ يا عائشة هلك»[1]..

(١) البخاري (١٠٣)، مسلم (٢٨٧٦)، والبيان لكيفية العرض ورد عند الحاكم (١٩٠).

وحدث له ما حدث لسعيدٍ قبله.. فلم يملك نفسه من الفرحة.. وأوتي كتابه بيمينه ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ﴾ [الإسراء:٧١].. فمن فرحته وسروره واستبشاره بما دُوِّن في كتابه من الصالحات يقرؤه ويحب قراءته وتكرار قراءته.. كرر قراءته.. وما له ألا يفعل فهو كتاب النجاح الأبدي، والفوز الخالد، والفلاح الدائم..

وانطلق يزهو بنتيجته.. ومنادي الحق ينادي: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ [الانشقاق: ٨]، وانطلق إلى أهله.. وأقبل على أصحابه فرحًا مغتبطًا يُنادي: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩﴾ [الحاقة:١٩].. انطلق وهو يحب من الناس أن يقرؤوا كتابه، وينظروا فيه، ويقلبوه فيطلب ذلك من صحبه وأهله ومعارفه وكل من لقيه، ويقول: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩﴾ [الحاقة:١٩] تعالوا فاقرءوا كتابيه، وماله ألا يطلب منهم ذلك وهو كتاب سروره الخالد!

لا تبعد عن المشهد:

استمع إليه وهو يملأ فمه بالكلام، ويردد بنشوةٍ وفرحٍ بعد أن شعر بنجاة الأبد: ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠﴾ [الحاقة:٢٠].. يقول لأهله ولأصحابه: إني ظننت.. أيقنتُ وعلمتُ أن هناك يومًا آخر للحساب والثواب والعقاب.. فعملت له، ولَهَا الغافلون وسَهَوا.. تيقنت باليوم الآخر.. أيها الصحبُ، ولم أنكر البعث وما نجوتُ إلا بخوفي من يوم الحساب إذ أعددت له.. نعم!.. قد كنت موقنًا في الدنيا أن هذا اليوم كائن لا محالة، وكنت ممن قال الله ﷻ فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة:٤٦]..

ولعلك تشاهد صاحب القلب المنيب وهو يتابع كلامه: ومع ذلك فقد ظننت أن يؤاخذني الله ﷻ بسيئاتي فيعذبني.. ولكنه الرحيم ربي فقد تفضَّل عليَّ بعفوه ولم يؤاخذني بها..

إنه المؤمن أحسن الظن بربه ﷻ فأحسن له العمل..

وصاحَبَته هتافاتٌ انبعثت تزيده حبورًا، وترفع لواءَه بين الخلق وتملؤه بشرًا وسرورًا: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحاقة:٢١] في عيشٍ يرضاه لا مكروه فيه، ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الحاقة:٢٢] عظيمةٍ في النفوس.. رفيعةٍ قصورُها.. حسانٍ حورُها.. نعيمةٍ دورُها.. دائمٍ حبورُها، ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الحاقة:٢٣]..يقال لهم فيها: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾ لا تكدير فيه، ولا تنغيص ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ﴾: قدمتم من الأعمال الصالحة ﴿فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة:٢٤]: في الدنيا.

وصدع نداء الرحمة والفوز المقيم معلنًا في الناس يوم العرض الأكبر: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الزمر:٦١]..

عندها لا يملك نفسه من الفرح فينطلق ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾ [الانشقاق:٩]..وهو يقول مناديًا فرحًا مبتهجًا معلنًا: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾﴾ [الحاقة:١٩] إنه كرم الله ﷻ.. إنه حبُّ الله ﷻ.. إنه وُدُّ الله ﷻ لمن أقبل عليه.. في دنياه.

فيا شوقُ لا تبعد، ويا دمعُ فض وزد ◆◆◆ ويا حُبُّ راوِحْ بين جنبٍ إلى جنبِ[1]

(١) لأحمد بن أمية بن أبي أمية. انظر: تاريخ بغداد ٤/ ٤٣.

من صور الحساب: نكران وجحود تسقطه الجوارح الشهود:

ينتظر كل إنسانٍ دوره في الحساب مشفقًا قلقًا.. ويرى الناس هناك النداء لحساب شخصٍ آخر فـ«يدعى الكافر والمنافق للحساب، فيعرض عليه ربه عمله فيجحد، ويقول: أَيْ ربِّ وعزَّتِك لقد كتب عليَّ هذا المَلَكُ ما لم أعمل. فيقول له الملَك: أما عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا؟ فيقول: لا! وعزتك أي رب ما عملته. فإذا فعل ذلك ختم الله تعالى على فيه فإني أحسب أول ما ينطق منه الفخذ اليمنى:

﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس:٦٥]..

وعندها:

﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ [هود: ١٨].

فيا لاهيًا عن مآله، ومخلطًا في أقواله وأفعاله.. رفقًا بنفسك رفقًا.. فإن لحظة من لحظات الحساب ومطالعة ما في الكتاب لقَمِينةٌ بزجرك، والنظر في عاقبة أمرك.

واذْكُرْ مُنَاقَشَةَ الحِسَابِ فَإِنَّهُ ... لا بُدَّ يُحْصَى مَا جَنَيْتَ وَيُكْتَبُ

لَمْ يَنْسَهُ المَلَكَانِ حِيْنَ نَسِيْتَهُ ... بَلْ أَثْبَتَاهُ وَأَنْتَ لاهٍ تَلْعَبُ[1]

لَكَأَنَّ الجبار جل وعز يقول والعباد يحاسبون: يا معشر الجن والإنس إني قد أنصتُّ لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا أسمع قولكم، وأبصر أعمالكم.. وصحفكم

(١) مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار، عبد العزيز السلمان ١/ ٣٠٠.

تُقْرأ عليكم.. فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

ومضيتُ أقرأ في الوجوهِ حكايةً ... إجمالها عند الذكيِّ مفصَّلُ

ورأيتُ ما لا كنتُ أحلمُ أن أرى ... حولي وقد كُشِفَ الستارُ المسدَلُ

هذا هو النمرود يندب حظَّه ... والدمع من هول المصيبة يهطلُ

وهناك فرعون المؤلِّهُ نفسَهُ ... يسعى بغير بصيرة ويولولُ

وهناك كسرى تاه عن إيوانه ... مترنِّحٌ في سيره متململُ

وهناك قيصر نَفْسُهُ مكسورةٌ ... وبقلبه مما يعاني مرجلُ

وهنا أبو جهل يراجع نفسَهُ ... عيناه توحي أنه يتوسَّلُ

يا رب أرجعنا لنعمل صالحًا ... غير الذي كنا نقول ونعملُ

هيهاتَ قد طُوي الكتاب ألم يكن ... فيكم نبيٌّ بالهداية مرسلُ

سبحان ربك هؤلاء جميعهم ... كانت لهم دار هناك تُبَجَّلُ

لكنهم كفروا بمن أعطاهم ... مُلْكًا وعاثوا في البلاد وقتَّلوا

ورموا بشرع الله خلف ظهورهم ... عزلوه عن حكم الزمان وعطَّلوا

جمع الطغاة هنا وقد هانوا على ... ربي وفاز المؤمن المتبتِّلُ

وقفوا وآلاف الضحايا حولهم ... فاليوم ينظر في الأمور ويبطلُ[1]

(١) الأبيات للدكتور عبد الرحمن العشماوي.

يا لإشراق وجهك!.. إذ الناس خاشعة أبصارهم، ترهقهم القترة والذلة:

واستدرت في ذلك الموقف العصيب فرأيت الناس فئتين:

فئة: مسودةٌ وجوههم، مُزْرَقَّةٌ عيونهم، خاشعةٌ أبصارهم.. على وجوههم غبرةٌ، ترهقها قترة.. يلحقها قَتَامٌ وسواد.. إنهم هم.. ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس:٤٢].

وفئةٌ تشفي الصدور، وتضيء الحضور، وتمتلئ بالحبور.. إنهم قد ﴿ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ [آل عمران:١٠٧]، ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ [يونس:٢٦].. بل ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [عبس:٣٨، ٣٩].. ألا ترى بريق الإيمان على وجوههم يسطع؟.. ألا ترى الصباحة والوضاءة على محياهم تلمع؟.. إنه نور الإيمان قد تجلى.. وإشراق اليقين قد تلألأ.. هذه سمة المفلحين من عباد الله في تلك المشاهد، ووسم المخلَصين المكرمين الأماجد..

فابحث هناك عن صاحب القلب المنيب.. هاهو ذا! إشراقه يدلُّك عليه.. انظر إلى وجهه.. ووجوه المخبتين من الذين اصطفاهم الله ﷻ بالإيمان.. لترى ما حباه الله ﷻ به من إشراقٍ وجمال وعظمة.. والناس في ظلمة مدلهمة..

هناك رأيت ما أنعم الله ﷻ عليه به من بياضٍ والناس في سواد..

ورأيت ما أعطاه من العزة، والناس في ذلةٍ وهوانٍ وصغار..

ورأيت ما حباه الله ﷻ به من صباحة الوجه.. فوجهه من الوجوه المسفرة.. ونفسه ضاحكةٌ مستبشرة، وهتاف الصدق، ونداء السرور يطوف عليهم مسمعًا آذانهم، مالئًا

بالبِشْر والسرور أنفسهم: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾ [الإنسان: ١١].

فلترجُ شيئًا مماثلًا في ذلك اليوم.. وكن بإيمانك وطاعتك فرحًا مزهوًا محبورًا.

أيها الناس: انظروا إلى هؤلاء لتعرفوا في وجوههم نضرة النعيم:

ويبيض الله ﷻ وجه صاحب القلب المنيب مع أنسه بالملائكة، وتصنيفه ضمن فريق الفائزين، وراحته في ظلال القوي المتين.. ثم يزداد وجهه إشراقًا بما يجري عليه من النعيم.. فما هو إلا أن يكتمل حسابه (عرض كتابه عليه)، ويأخذ الكتاب باليمين حتى يدخل في المُشَرَّفين بفئة الوجوه الناعمة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾﴾ [الغاشية: ٨] ناعمة ذات نعمة، ويرى فيها الطيب، ونعومة العيش..

النعيم يظهر عليه حسيًّا.. فهو يذوقه وهو في عرصات القيامة..

ويظهر عليه نفسيًّا لأنه نَعِمَ بما عاين من عاقبة أمره وعمله الصالح..

لا تظنن أن جماله ينقص مع مرور الوقت بل يزداد؛ إذ يرى نفسه بعد قليلٍ وقد صار من أصحاب الوجوه الناضرة.. ثم يبلغ الجمال غايةً عظيمةً في وجهه.. وتلتفت لترى وجوه المخبتين من صحبه فـ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ [المطففين: ٢٤].. وإذا جرت عليهم نضرة النعيم فلن تتغير أبشارهم أو تُغيَّر بعدها أبدًا، ولن تشعث أشعارهم أبدًا.. تراهم كأنَّما دهنوا بالدهان.. فالجسم لدن ريَّان، والشعر يغار من حسنه وجماله القمران ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمن: ١٣].

◆ يا أبيض الوجه: حسنٌ بعد حسن.. وجمال بعد جمال.. إنها إشراقة فالق الإصباح يظهرها الله عليك:

وحتى يزيد الله في حبور هذا الولي الصالح.. فإنه ينتقل من حسنٍ إلى حسنٍ، ليزداد انشراحًا ونورًا.. في وسط الظلمات التي تغطي الموقف:

حين يبعث من قبره يكون وجهه أبيض مسفرًا.. والكافر يخرج مسود الوجه.. فارغ الفؤاد ترهقه ذلة.. أما صاحب القلب المنيب في هذا الموقف فانظر إلى بهجته لتراه مزهرًا.

وعند قراءته لكتاب أعماله يتناوله باليمين فيزداد نورًا وحبورًا.. فإذا رأى في كتابه حسناته استبشر وابيض وجهه.. وامتلأ سرورًا.

وعند الميزان إذا رجحت حسناته زاد وجهه بياضًا، وأما الخاسر فيرى سيئاته قد رجحت فيزداد وجهه زرقةً وسوادًا.

وعندما يأمر الله عز جاره بالتفريق بين المسلمين والمجرمين، وينادي المنادي ﴿ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٩﴾ [يس:٥٩] فينحاز صاحب القلب المنيب ضمن فريق المتقين يزداد وجهه بياضًا، وإسفارًا.. ويزداد المجرم سوادًا وخسارًا.

وعندما يدعى الناس إلى السجود فيسجد صاحب القلب المنيب ضمن فريق المتقين، ويذهب الخاسر ليسجد فيعود ظهره طبقًا واحدًا، فينقلب ولا يستطيع أن

يفعل فعلَ الساجدين.. يزداد وجهه بياضًا وبشرًا وإشراقًا، ويزداد الخاسر سوادًا، وظلمة[1].

مع كلِّ بشارة يتلقَّاها من الرب الكريم يشرق وجهه بالجمال الساحر، والنور الباهر، والحسن الآسر.. ثم لا يزال من نور وجهه وصباحته في زيادة.. ومن روعة جماله ولطيف أحواله في إفادة بعد إفادة.. فيا فخامة وهيبة وجلال تلكم الوفادة!.. ويا لحياة رضية رخية تنتظره محشوة بالهناءة والسعادة!

فاللهم فضلًا من واسع أفضالك.. وهبة من عظيم نوالك.

(١) انظر: تفسير القرطبي (٤/ ١٦٦).

المشهد الرابع

أسبل الدمع الهطال وأنت تشاهد صور الحساب في يومٍ شديد الأثقال

شهادة التوحيد بطاقة نجاة وجواز عبور بفضل البَرِّ الشكور: شهادة التوحيد بطاقة رابحة.. وفي الميزان راجحة.. منجاة للمخلصين.. ومنقذة للمستيقنين:

وفي موقف الحساب سمع صاحب القلب المنيب كما سمع الخلائق مناديًا ينادي على رجل.. ونظروا بقلوبٍ فزعةٍ وجلة.. فقد صاح صائحٌ «برجلٍ -كما يقول النبي ﷺ- من أمتي يوم القيامة»[1].. صيح به «على رؤوس الخلائق» ليتابعوا حسابه.. فنظروا إليه ليروا أنه «يُنْشَرُ عليه تسعةٌ وتسعون سِجِلًّا.. كلُّ سجلٍّ مدَّ البصر» من سيئاته، وخطاياه وذنوبه.. فلما نشرت السِّجلَّات، وظهرت الخطيئات، واستبانت للناس السيئات الظاهرات والمخبآت.. «يقول الله تبارك وتعالى: هل تُنْكِرْ من هذا شيئًا؟».. ولكن الرجل رقيقٌ على الرغم من كلِّ ما فعله.. لم يفعل ذلك عنادًا.. ولا اقترفه يحاد الله ورسوله.. ولكنه ضعف النفس الذي ما زال يُقَيِّدُ العباد، ويُظْهِرُ الشيطانُ به الفساد..

---

(١) حديث البطاقة مشهور خرجه أحمد في "المسند" (٦٩٩٣)، والترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، وقال المناوي في "كشف المناهج" ٥/ ٢٣ : "رجاله موثوقون". وقال محققو المسند: "إسناده قوي"، وصححه جمع من المعاصرين.

..«يقول الله تبارك وتعالى: هل تُنْكِرْ من هذا شيئًا؟»..

«فيقول: لا يا رب».

«فيقول: أظلمتك كتبتي الحافظون؟».

«فيقول: لا يا رب»..وهكذا لم يكذب على ربه ﷺ.. لأنه قد عرف ربه في دنياه.. فما له لا يخافه في أخراه؟.. عندها:

«يقول -له ربه-: أفلك عذر؟

فيقول: لا يا رب»..

فيقول له ربه: «ألك حسنة؟»..

«فيهاب الرجل» أن يدَّعي أن له حسنةً وهو لا يذكر شيئًا من عملٍ صالحٍ قدمه.. يهاب لأنه وإن لم يعمل الحسنات، ولم يترك المعاصي والسيئات.. ولكنه يخاف رب الأرض والسموات.. ويعظم قاهر العباد والمخلوقات..«فيقول: لا».

«فيقول -الله ﷻ -: بلى، إن لك عندنا حسنةً، وإنه لا ظلم عليك اليوم»..

فيتفكر في نفسه: ما الحسنة التي عملتها؟.. وقد كاد عقله يزيغ خوفًا وإشفاقًا!..

فيأمر الله ﷻ بحسنته أن تظهر..

«فتخرج له بطاقةٌ فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله» كلمة التوحيد.. به تغفر الذنوب، وتطهر القلوب، ويمجدُ العبدُ ربه علام الغيوب..

«فيقول -الله ﷻ له-: أحضر وزنك»..

ولكن الرجل يراها وحدها مكتوبةً في بطاقة.. فيستنكر، ويستغرب.. وقد أكله الخوف..

«فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السِّجلَّات؟»..

«فيقول -الله ﷻ له-: إنك لا تُظْلَم»..

فيأمر الله عز جاره «فتوضع السِّجلَّات في كِفَّةٍ، والبطاقة في كِفَّةٍ»..

فتكون النتيجة مذهلة.. إذ يستفيق الرجل من سكر خوفه وقد «طاشت السجلات، وثقلت البطاقة» فهنيئًا.. نعم! «فلا يثقل مع اسم الله شيء»..

> **«فإن السموات السبع والأرضين السبع، لو وضعن في كفة ووضعت لا إله إلا الله في كفة لرجحت بهن»**[1].

وهكذا فاز بشهادة التوحيد، فزحزح عن النار وأُدخل الجنة ففاز، فنعم أجر الفائزين، لكن الله ﷻ عز وتكرم- قد علم أنه لم يكن يقول هذه الكلمة العظيمة قولًا لا يدرك معه قيمتها، ولا مقتضياتها، لم يكن يقولها غافلًا عما توجبه عليه، وتلزمه به في أوقاته من خلفه وبين يديه، بل قد استقر في قلبه من الإيمان واليقين بها ما جعلها تطيش بتلك السِّجلَّات، فالمنافقون في عهد النبوة رددوها، فأضاءت

(١) ينظر: مسند أحمد (٦٧٥٠)، والأدب المفرد (٥٤٨)، صححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٥٤٨)، وقال شاكر في تحقيق المسند: إسناده صحيح.

لهم حياتهم، وما حولهم، لكنهم أطفؤوا نورها عندما أهملوا مقتضياتها، ولم يعملوا بما توجبه عليهم في حياتهم، فضلًا عن أنهم لم يستيقنوا بها في قلوبهم، ولا أخلصوا بها في بواطنهم، فقد قال الله تعالى عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [النور: ٤٧]، وهذا يؤكِّد ويقرِّر شرف أعمال البواطن والقلوب، فإن بها يقع التفاوت في المنازل والدرجات، وبها تحصل النجاة من الدركات، فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنَّه قال:

«يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرةٍ من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن بُرَّة من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرَّة من خير»[1]

فدلَّ ذلك على أنَّ ما يقوم في القلوب من الإيمان معقد للنجاة من النيران، ولرجحان الميزان، والفوز برضا الرحمن.

إن حديث البطاقة دافع إلى ترك المنكرات، وفعل الخيرات تصديقًا لأصدق الكلمات الطيبات، وليس بطاقة مجانية يفعل بها الإنسان الكبائر، ويطبع على قلبه بالاستمرار على فعل الصغائر، فليس ذلك شأن صاحب القلب المنيب، فهو يذكر قول أحد أعلام المخبتين المباركين: "فهذه حال من قالها بإخلاص وصدق، كما

(١) البخاري، (٤٤)، مسلم (٣١٦).

قالها هذا الشخص. وإلا؛ فأهل الكبائر الذين دخلوا النار كلهم كانوا يقولون: لا إله إلا الله، ولم يترجَّح قولهم على سيئاتهم، كما ترجَّح قول صاحب البطاقة"[١].

وقال صاحب "حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح":

"ومن عرف هذا، عرف قول النبي ﷺ: «إن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله»[٢]، وقوله: «لا يدخل النار من قال: لا إله إلا الله»[٣]... والشارع -صلوات الله وسلامه عليه- لم يجعل ذلك حاصلًا بمجرد قول اللسان فقط، فإن هذا خلاف المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام، فإن المنافقين يقولونها بألسنتهم، وهم تحت الجاحدين لها في الدرك الأسفل من النار، فلا بد من قول القلب، وقول اللسان... وتأمَّل حديث البطاقة التي توضع في كِفَّة، ويقابلها تسعة وتسعون سِجِلًّا، كلُّ سِجِلٍّ منها مدَّ البصر، فتثقل البطاقة وتطيش السِّجلَّات، فلا يعذب!!

ومعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة، وكثير منهم يدخل النار بذنوبه، ولكن السر الذي ثقَّل بطاقة ذلك الرجل، وطاشت لأجله السِّجلَّات؛ لـمَّا لم يحصل لغيره من أرباب البطاقات، انفردت بطاقته بالثقل والرزانة"[٤].

---

(١) منهاج السنة ٦/ ٢١٩-٢٢١.

(٢) البخاري (٤٢٥)، مسلم (٢٦٣).

(٣) جاء نحوه في الحديث السابق عند مسلم (٢٦٣).

(٤) مدارج السالكين ٢/ ٨٨٨-٨٩١.

أيا حافظ القرآن! خذ هذه الهدية.. ونل هذا التميز:

في موقف الوجل العظيم ترى مشهدًا يتمناه كثيرٌ من الخلق، ويغبطون صاحبه عليه في ظل هذه المعامع، فقد جاء لصاحب القلب المنيب رجل حسن الوجه.. فإذا به القرآن جَسَّدَه الله كما يجسِّد بقية الأعمال الصالحة.. وكانت مفاجأةً: أهو القرآن؟ نعم القرآن! : فـ«**إن القرآن يأتي أهله [كالرجل الشاحب] يوم القيامة أحوج ما كانوا إليه، فيقول للمسلم: أتعرفني؟ فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا الذي كنت تحب، وتكره أن يفارقك.. الذي كان يصحبك ويدنيك [أنا الذي أظمأتك في الهواجر، وأسهرت ليلك، وإن كلَّ تاجرٍ من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كلِّ تجارةٍ]، فيقول: لعلَّك القرآن. فيقدم به إلى ربه ﷻ، [فيقول: يا رب حَلِّهِ، فَيُلْبَسُ تاج الكرامة، ثم يقول: يا رب زده. فيلبس حُلَّة الكرامة، ثم يقول: يا رب ارض عنه.. فيرضى عنه]، فيعطى الملك بيمينه، والخلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار، وينشر على أبويه حُلَّتان لا يقوم لهما الدنيا أضعافًا، فيقولان: لأيِّ شيءٍ كسينا هذه ولم يبلغه أعمالنا. فيقول: هذا بأخذ ولدكما القرآن ثم يقال له: اقرأ، واصعد في درج الجنة وغرفها فهو في صعودٍ ما دام يقرأ هذا كان أو ترتيلا**»[1].

إيه يا صاحب القلب المنيب!.. ذلك جزاء حفظك للقرآن ومحافظتك عليه..

(١) أحمد (٢٢٩٥٠)، وابن ماجه (٣٧٨١)، وقال في مصباح الزجاجة ٤/ ١٢٦: "هذا إسنادٌ رجاله ثقات"".

يـا بَـارَكَ الرحمـنُ في قـومٍ لهمْ ... بالذِّكـرِ شُـغْلٌ والهـدى ترتِيلُ

قـومٌ على الآيـاتِ أحْيَـوا ليلَهمْ ... ولهـم بها كَلَـفٌ كـذاكَ طويلُ

جعلـوا كتـابَ اللهِ أنْـسَ حياتِهم ... فالذِّكـرُ عنْهـمْ طيِّـبٌ وجَمِيلُ

فـازوا برضـوانِ الإلـهِ فأجرُهمْ ... عند الكريمِ مضاعَـفٌ وجزيلُ

همْ أَهْـلُ ربِّ العالميـنَ فمَا لهمْ ... غَيـرَ الإلـهِ مُعَـوَّلٌ وبديـلُ

هـمْ خيـرةُ الأقْـوامِ دونَ منازعٍ ... ولهمْ بـه مجْـدٌ هنـاكَ أَثِيلُ[1]

ثـم رأيتـه بحفظـه للقـرآن يسـير بيـن النـاس أجمعيـن بعلامـةٍ مميـزة.. يـا لهـا مـن علامـة!.. إن عليـه مـا يشـبه السـحابتين العظيمتيـن يسـير تحتهمـا وفي ظلهمـا أنَّـى تحـرك أو توجـه.. لا تتسـاءل عـن سـر هـذا الشـرف الـذي حـازه.. فـإن ذلـك صـار معروفًـا لـه.. أليـس يحفـظ القـرآن.. لقـد تعلـم ممـا تعلـم في القـرآن الزهراويـن.. إنهمـا «سـورة البقـرة وآل عمـران، فإنهمـا الزهـراوان، وإنهمـا تـظلان صاحبهمـا يـوم القيامـة، كَأَنَّهُمَـا غَمَامَتَـانِ، أَوْ غَيَايَتَـانِ، أَوْ فِرْقَـانِ مِـنْ طَيـرٍ صَـوَافَّ»[2]، بـل رأيتهمـا وقـد جسَّـدَهما الله تعالـى فهمـا تحاجَّـان عـن صاحبهمـا.. تحاجَّـان، وتجـادلان عنـك لئـلا ينالك همٌّ أو حـزن، أو يصيبك أذىً في موقـف الأهـوال.. فـأيُّ سـعادةٍ! وأيُّ أُنْـسٍ!

(١) الأبيات للدكتور: سعيد بن دحباج -وفقه الله-. ديوان "عتب القوافي"، ص: ٣.

(٢) مسـلم (٨٠٤)، قَـالَ الْأَصْمَعِي: «الغيايـة كل شَـيْء أظـل الْإِنْسَـان فَـوق رَأسـه مثـل السـحابة». غريـب الحديـث، أبـو عبيـد ١/ ٩٣.

وهنا يتردد على مسامع المغتبطين والنادمين من الناس وعد الله العظيم:

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢﴾ [ق:٣٢].

حبيب يفرح بأخذ حسنات حبيبه:

وفي موقف الحساب.. حدث أمرٌ تطير لهوله الألباب.. إذ رأيتم عبدًا أُتي به في الموقف.. نعم: «فينادى على رؤوس الأولين والآخرين هذا فلان ابن فلان»[1]..

فتلتفت الخلائق. .لِمَ أُعلن عن اسمه؟ ما الخطب؟ فيكمل المنادي نداءه: «من كان له حقٌّ فليأت إلى حقِّه»..

يا الله!.. اللهم سلم.. اللهم إنا نعوذ بك من الخزي.. من يفرح بذلك ومن يحزن عليه؟.. استمع إلى الموقف الرهيب يصوره لك ابن مسعود ﷺ فعندما يُنادى بقضاء الحقوق «تفرح المرأة أن يكون لها الحقُّ على أبيها أو أمها أو أخيها أو زوجها» -ثم قرأ ابن مسعود ﷺ- ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ۝١٠١﴾ [المؤمنون:١٠١].. ويُحاسَبُ العبد.. والناس يتشوفون لمصيره خائفين.. ومن رحمة الله به.. أن الله ﷻ «يغفر من حقِّه ما يشاء، ولا يغفر من حقوق الناس شيئًا»، بل «ينصب للناس فيقول: ائتوا للناس حقوقهم»..

فيصعق العبد «فيقول: يا رب، فنيت الدنيا، من أين أوتيهم حقوقهم؟»..

(١) ذكر هذا الحديث ابن كثير في تفسيره ١/ ٤٩٨ عن ابن مسعود ﷺ موقوفًا، وعزاه لابن أبي حاتم.

ويستمع الخلائق للقِصاص الرهيب، وكيف ترد المظالم في ذلك اليوم العصيب «فيقول: خذوا من أعماله الصالحة، فأعطوا كلَّ ذي حقٍّ بقدر مظلمته»، هناك يكون الناس.. أحوج ما يكونون إلى مثقال الذرة من الحسنة.. فكيف يكون حالهم وهم يرون حسناتهم تُقسمُ على الناس وهم يشاهدون؟! فأيُّ غبن فوق ذاكم الغبن!.. وأيُّ خسارة فوق تلكم الخسارة!.. وأيُّ ندامة وحسرة تجلل من هذا حاله؟!.. هذا عبد قد صلى.. هذا عبد قد صام.. هذا عبد قد زكى، هذا عبد قد عمل الصالحات، وجاء بالقربات.. ثم تصير كلُّها لغيره، وتوضع في موازين سواه.. يا للجهد المهدور!.. يا للوزر والموزور!.. يا للويل والثبور!

ولكن المؤمن تدركه رحمة الله.. إذ يقول ابن مسعود ﷺ وهو يحكي تتمة ذلك الحدث: «فإن كان وليًّا لله، فَفَضَلَ له مثقال ذرَّةٍ ضاعفها الله ﷻ حتى يدخله بها الجنة»، ثم قرأ: ﴿لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [النساء:٤٠]..رحمةٌ من الله وفضلٌ لعباده المؤمنين.. ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء:١٧٥]..

والحمد لله رب العالمين..

قال ابن مسعود ﷺ: **«وإن كان عبدًا شقيًّا، قال الملك: فَنِيت حسناته، وبقي له طالبون كثيرٌ. فيقول -الله ﷻ-: خذوا من سيئاتهم فأضيفوها إلى سيئاته، ثم صكُّوا له صكًّا إلى النار»**.

انظر هناك: يا لعظمة التكريم على الملأ -ما أسهل سببه لو كانوا يعقلون-:

ورأى صاحب القلب المنيب هناك رجالًا.. كانت الطمأنينة تملأ قلوبهم.. تملأ قلوبهم بصورةٍ متميزةٍ: الطمأنينة تملأ قلوبهم والناس في رعبهم.. الرجاء يملأ أفئدتهم والناس في خوفهم..

عندها وددتَ -أيا صاحب القلب المنيب أن تكون مثلهم-، فطمأنينتهم ليست كطمأنينة الآخرين.. وتساءلتَ عنهم فعلمت أنهم مِنْ «مَنْ كظم غيظًا وهو يستطيع أن ينفذه»، فكان جزاؤهم أن الله ﷻ ملأ قلوبهم رجاءً يوم القيامة.. فقد رأيتَ الواحد منهم يكرم تكريمًا خاصًّا.. يا له من تكريم! يا بؤس المحرومين!.. يا ندامة المفرطين! لقد «دعاه الله ﷻ» في هذا اليوم العظيم المخيف.. أجل! تسمع نداء الحق على الأشهاد.. يملأ القلوب المؤمنة، ويحيي الأكباد.. تسمعه وهو يدعو هذا المكرم المصطفى المختار «يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره في أي الحور شاء»[1].

هذه عاقبة التحكم في النفس، وإلجام جماحها، وأطرها على التصبر أطرًا فلا يطيش حلمها، أويتسفَّل بها حبُّ التشفي في دركات الجهالة، أو تستفزُّها حماقات ذوي البطالة.. إنه كظم الغيظ الذي غفل عن أهميته الغافلون.. ترى عاقبته أن يخير صاحبه من الحور العين في موقفٍ يغبطه فيه الأولون والآخرون.. ومنادي الحق ينادي: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠﴾ [الكهف:٣٠].

---

(١) أبو داود (٤٧٧٧)، الترمذي (٢٤٩٣) وقال: حسن غريب، وحسنه الألباني.

تكريمٌ عظيم: أنت تشهد على سائر الأمم:

ولأنك -أيا صاحب القلب المنيب- كنتَ من المصدقين باليوم الآخر، فإنَّ لك تكريمًا عظيمًا على رؤوس الملأ.. واشهد هذه الصورة لك وللمؤمنين المصدقين باليوم الآخر:

يؤتى بكم جميعًا على رؤوس الملأ لتشهدوا.. ها أنت ذا مع الأشهاد الذين يشهدون على الذين كذبوا على ربهم، وأنكروا اليوم الآخر.. انظر إليهم، يا لكثرتهم!

وقبل أن تبدؤوا بالشهادة توصفون بأجمل وصفٍ، ويُثْنَى عليكم بأرقى ثناء.. لَكَأَنَّه يقال: اسمعوا إلى شهادة هؤلاء عليكم.. هؤلاء هم الذين أوتوا العلم والإيمان.. وتأتي شهادتكم بعد شهادة الأنبياء والملائكة.. يا للنعيم الذي تحظى به إذ أنت منهم!.. تنعم وتمتع بهذا التكريم..

ثم يؤذن لكم فتتكلمون بما لديكم منكلين بكلامكم هؤلاء.. فتنطقون زاجرين لهم شاهدين عليهم بالحق:

يا أيها المنكرون ليوم البعث ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الروم:٥٦] لقد لبثتم في قبوركم إلى يوم البعث.. فإن كنتم منكرين البعث فهذا يوم البعث الذي كنتم تنكرونه.. ولكنكم كنتم لا توقنون بالعلم الحقيقي الذي كان ينبغي أن تهتموا به..

فيحاولون أن يعتذروا، فلا تقبل أعذارهم.. وهكذا يُعزَّز المؤمنون ويكرمون

بوضعهم في مكان الشهادة على المبطلين من العالمين.. في يوم الأهوال والشدائد والخزي المبين.

ويظهر تميزك وتميز أمة محمد ﷺ بين الأمم حينما يتنكر الأقوام لأنبيائهم فـ"يَجِيءُ نُوحٌ عليه السلام وَأُمَّتُهُ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى، هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ نَعَمْ أَيْ رَبِّ، فَيَقُولُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ لا مَا جَاءَنَا مِنْ نَبِيٍّ، فَيَقُولُ لِنُوحٍ عليه السلام: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ ﷺ وَأُمَّتُهُ، فَنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ، وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]"(١).

لقد سبق من الله ﷻ لهذه الأمة مرسوم السعادة، وبوَّأهم في الدارين درجة السيادة، ثم هو يوم القيامة يجعلهم أهلًا للشهادة.. فيا نعمت الحسنى والزيادة: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

انظر موقف الدلال: عملتُ ذنوبًا لم تعرضوها عليَّ:

وبعد أن نجوتَ وقد نجت فئاتٌ عظيمة من المؤمنين معك.. رأيتم رجلًا ممن يلحق بكم على درب النجاة، وسبيل الحياة الحقة، والنعيم المقيم.. ولكنه يتأخر عنكم تأخرًا كثيرًا، فهو «آخر أهل الجنة دخولًا الجنة، وآخر أهل النار خروجًا منها»(٢).. تقدم ليتم حسابه قبل أن يسبل الله ﷻ عليه ستر نعمته ورحمته.. انظر إليه

(١) البخاري، (٣٣٣٩)، مسلم (٣١٤).

(٢) البخاري، (٣٣٣٩)، مسلم (٣١٤).

متمتعًا بنجاتك، ناظرًا لرحمة ربك فيه..

انظر إليه وهو «يؤتى به يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، وارفعوا عنه كبارها» لحكمة بالغةٍ، ورحمةٍ عظيمةٍ يحاسب أولًا على الصغائر، «فتعرض عليه صغار ذنوبه» ويستغرق في النظر إليها وقراءتها.. ويكون الحساب علنيًّا، وبالكلام كما هو مكتوبٌ تحريريًّا «فيقال: عملتَ يوم كذا وكذا كذا وكذا، وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا» يا الله! بالدقيقة والساعة واليوم.. بالزمان والمكان.. أجل إنه ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف:٤٩].. كل شيءٍ مدوَّنٌ مكتوبٌ مُسَطَّرٌ: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ۝٥٣﴾ [القمر: ٥٣]..ومنادي الحق ينادي: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ۝٤٧﴾ [الأنبياء:٤٧].

ولأنه يستحق دخول الجنة، فإنه لا يتعمَّد الكذب، ولا يحاول الفرار من الإقرار بما اقترفت يداه «فيقول: نعم! لا يستطيع أن ينكر» وهذه هي الصغائر فقط. وقد أظلمت عليه الدنيا فكيف سيفعل مع الكبائر.. انظر إليه «وهو مشفقٌ من كبار ذنوبه أن تعرض عليه»، ولكن لأنه تاب وأناب قبل حلول الأجل، يفاجأ بنتيجة الفرح وحسن مآب «فيقال له: فإن لك مكان كل سيئةٍ حسنةٌ» يا لها من نتيجة عجيبة!

فما زلتَ ذا عفوٍ عنِ الذَّنب لم تزلْ ••• تجودُ وتعفو مِنَّةً وتكرُّما

تعاظمني ذنبي فلمَّا قرنتُهُ ••• بعفوك ربي كان عفوُك أعظما[1]

(١) البيتان للشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ. ينظر ديوانه، ص: ١٥.

عندها -يظهر طمع ابن آدم المعتاد فيود أن لو عرضت عليه كبار ذنوبه حتى تبدل حسناتٍ، والنبي ﷺ يُصَوِّرُ هذا الطمع في رحمة الله من هذا العبد، «يقول: رب قد عملت أشياء لا أراها ههنا» اعرض عليَّ بقية الحساب يارب! ولا شك أنه موقفٌ يثير ضحكك الممزوج بالفرح بفضل الله الواسع، وكرمه السابغ.. ضحك سعادةٍ غامرةٍ لا يعبر عنها إلا بالضحك.. ولقد ضحك رسول الله ﷺ وهو يُرِي الناس هذا المشهد حاكيًا.. ضَحِكَ ﷺ حتى بدت نواجذه.

ليتبع كلُّ قومٍ ما كانوا يعبدون.. فمن تعبد أيا صاحب القلب المنيب؟[1]:

وبعد اجتياز صاحب القلب المنيب الأهوال السابقة بهذه الكرامات الظاهرة: «يُنادي منادٍ ليذهب كلُّ قومٍ إلى ما كانوا يعبدون»..

إنه موقفٌ فصلٌ، وفيه مكرٌ بِعَبَدة الأوثان.. إذ يود كلُّ واحدٍ أن يخلص من هول يوم القيامة، وقد نالهم من الخوف والرعب والنصب والعذاب.. ولسان الذكرى يصيح في الغافلين: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤﴾ [المطففين:٤]..لذا يناديهم المنادي بذلك.. ويبين لهم حيثيات ذلك فيقول:

«يا أيها الناس ألم ترضوا من ربكم الذي خلقكم وصوركم ورزقكم أن يوالي كلُّ إنسانٍ ما كان يعبد في الدنيا ويتولى..؟» فماذا سيتبعون؟ هو ما كانوا يعبدون في الدنيا.. ويصدر لهم الأمر الصارم ليعلموا أنه العدل المحض، والإجراء اللازم:

(١) هذا الحديث العظيم وفيه حديث الجسر في المشاهد التالية عند البخاري (٧٠٠١)، وفي مواضع متفرقة، وعند مسلم (١٩١)، وجملة: «أليس ذلك عدل من ربكم» عند الحاكم (٨٧٥١) على الرفع لكلمة عدل.

«من كان يعبد شيئًا فليتبعه» ويتبعه بالسؤال: «أليس ذلك عدلٌ من ربكم؟» فماذا يملكون أن يقولوا:

«قالوا: بلى»..عندها ترى المواكب الخاسرة تمضي.. تراهم يتبعون ما كانوا يعبدون.. تُرى بأيِّ شعورٍ حينها يشعرون؟!

«فينطلق كلُّ إنسانٍ منكم إلى ما كان يتولى في الدنيا، ويُمَثَّلُ لهم ما كانوا يعبدون في الدنيا.. يُمَثَّلُ لمن كان يعبد عيسى شيطانُ عيسى، ويُمَثَّلُ لمن كان يعبد عزيرًا شيطان عزير.. حتى يُمَثَّلَ لهم الشجر والعود والحجر» ومن كان يعبد هواه فيا بؤسه فليتبعه..

هاهي ذي معبوداتكم فاتبعوها من قريب.. عساها تنجيكم من هذا الموقف العصيب..

«فيتبع من كان يعبد الشمسَ الشمسَ، ويتبع من كان يعبد القمرَ القمرَ، ويتبع من كان يعبد الطواغيتَ الطواغيتَ».. وينطلقون.. يا حسرة الخاسرين!.. لقد حق عليهم القول المبين: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾ [النساء:١١٥].. «فيذهب أصحاب الصليب مع صليبهم، وأصحاب الأوثان مع أوثانهم، وأصحاب كلِّ آلهةٍ مع آلهتهم»..

إلى أين يسيرون؟! إلى أين..؟! مع أئمتهم ومعبوديهم.. ترى كل إلهٍ كاذبٍ من آلهتهم ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ٩٨﴾ [هود: ٩٨]..وهناك

بقي صاحب القلب المنيب مكانه لأنه يعبد رب العالمين.. ذهب المحاسَبون أجمعون وبقي «من كان يعبد الله من بَرٍّ أو فاجر، وغبراتٌ من أهل الكتاب»..

انظر واسمع: اشربوا.. فيتساقطون وهل في جهنم مورد لظامئ وريٌّ لعطشان؟!

بقي المؤمنون والفجار وأهل الكتاب.. لم ينطلقوا مع أحدٍ؛ إذ دعواهم جميعًا أنهم يعبدون الله ﷻ.. يترقبون في خوفٍ ووجلٍ.. عند ذاك يحدث هولٌ عظيمٌ للباقين؛ إذ تقرب جهنم من الجميع أكثر.. هاهم أولاء يرونها عيانًا.. ووقفوا عليها.. نعم «يؤتى بجهنم تُعْرَضُ كأنها سراب»..ثم يؤخذون فئةً.. فئةً أمام الأسئلة العسيرة..

◆ **فأول فئةٍ تسأل في موقف الهول المبين هم اليهود:**

يقال لهم: «ما كنتم تعبدون؟..

قالوا: كنا نعبد عزير ابن الله».

فيقال: كذبتم. لم يكن لله صاحبةٌ ولا ولدٌ. فما تريدون؟»..الهول والعطش والرعب يأكلهم.. فما يريدون؟ أهم ما يطلبونه ماءٌ يروي عطشهم الطويل في يوم الخطب الجليل.. لذا يقولون: «نريد أن تسقينا»..ويئنُّون «فيقولون: عطشنا ربنا فاسقنا.. عطشنا ربنا فاسقنا» آلآن عرفتم ربكم، وطلبتم منه السقيا؟!

«فيقال -استهزاءً وسخرية وزجرًا وردعًا-: اشربوا.

فيتساقطون في جهنم»..

اشربوا من جهنم؟.. اللهم سلِّم.. سلِّم.. يا لفاجعة الذين افتروا على الله

الكذب!.. يا لحسرة الذين حادوا الله ورسوله وبغوا في الأرض فسادًا وعيشًا نكدًا مضطربًا!

والفئات الأخرى باقيةٌ على حالها تشهد المنظر الرهيب.. والخوف يحيط بمن استهزأ باليوم الآخر..

◆ فيؤتى للفئة الثانية وهم النصارى:

فيقال لهم: «ما كنتم تعبدون؟

فيقولون: كنا نعبد المسيح ابن الله.

فيقال: كذبتم. لم يكن لله صاحبةٌ ولا ولد. فما تريدون؟

فيقولون: نريد أن تسقينا» ويئنُّون بشدة.. يئنُّون «فيقولون: عطشنا ربنا فاسقنا.. عطشنا ربنا فاسقنا».

«فيقال-استهزاءً وسخرية وزجرًا وردعًا-: اشربوا. فيتساقطون»..

◆ هنيئًا لك بتذوق لذة السجود لله في هذا اليوم:

◆ ثم بقيت الفئة الثالثة: المؤمنون والمنافقون المراؤون..

«يبقى من كان يعبد الله من برٍّ أو فاجرٍ» هم يَدَّعون أنهم يعبدون الله ﷻ وفيهم صاحب القلب المنيب.. سنرى من بكى ممن تباكى.. سيتضح اليوم صدق الدعوى من زيفها.. إذ ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّ﴾ [النبأ:٣٩] نعم! ذلك اليوم الحق.. ليتهم كانوا يعلمون.. ومنادي الحق ينادي على أهل الدنيا.. علينا-أبناءَ الدنيا-: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ٣٩﴾ [النبأ:٣٩].. ليجد

ذلك المآب حقًّا يوم القيامة.

«فيقال لهم: ما يحبسكم وقد ذهب الناس؟

فيقولون: فارقنا الناس في الدنيا على أفقر ما كنا إليهم، ولم نصاحبهم.. ونحن ننتظر ربنا الذي كنا نعبد، وإنا سمعنا مناديًا ينادي: ليلحق كلُّ قومٍ بما كانوا يعبدون، وإنما ننتظر ربنا -فيأتيهم الجبار-..وعندها يؤمرون بالسجود له في هذا اليوم الشديد ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ [القلم:٤٢]، فيتذوق العبد المنيب الأواب البار.. لذة السجود، ولذة نجاحه في الاختبار..

«فيسجد له كلُّ مؤمنٍ، ويبقى من كان يسجد لله رياءً وسمعةً فيذهب كيما يسجد فيعود ظهره طبقًا واحدًا [ويبقى قومٌ ظهروهم كصَياصِي البقر يريدون السجود فلا يستطيعون]»..ظهورهم طبقة واحدةٌ فكيف يستطيعون السجود..؟!

شجرة الإخلاص أصلها ثابت لا يضرها زعازع ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [القصص: ٧٤]، وأما شجرة الرياء فإنها تجتث عند نسمة (من كان يعبد شيئًا فليتبعه)[1].

هذا شأن أهل الإخلاص والتوحيد في الدارين الأولى والأخرى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد: ١٧].

يا لشدة الموقف!.. يا لفضيحة الموقف!.. اللهم فأتمم سترك ونعمتك وعافيتك

(١) بدائع الفوائد، لابن القيم ٣/ ٢٣٧.

في الدنيا والآخرة.. يريد المرائي السجود فيعود ظهره طبقًا واحدًا.. يريد المنافق السجود فلا يتمكن؛ إذ قد صار ظهره طبقةً واحدةً.. يذهب كيما يسجد بأي شكلٍ ولكنه ينقلب على ظهره.. اللهم فاغفر واعف واجعلنا من المصطفين الأخيار في ذلك اليوم.

وسجد صاحب القلب المنيب.. فيا لذة تلك السجدة!.. ذاق لذة سجوده.. وما له ألا يفعل، وقد كان يتذوق لذة السجود في دنياه؟.. ما له ألا يفعل وقد كان يفر من فتن الدنيا وأكدارها ومصائبها إلى لذة السجود، ونعيمه، وصفائه؟... قد كان السجود أشهى لذاته، وغاية أمنياته، وأسعد لحظاته.. طالما غمره السجود بالطمأنينة والراحة، والحبور والاستراحة.. قد كان السجود بين يدي الله، والانطراح على عتبة مولاه من قبل منتهى أمله ومناه، وموضع سكينته ونجواه.. فهل تراه ينكث عما عليه تعوَّد، أو تراه ينكص عما تقرر من سيرته وتأكَّد؟!

بعد أن يخر أهل الصدق ساجدين ويشهد لهم حالهم بالإيمان واليقين «**يؤمرون فيرفعون رؤوسهم.. فيُعْطَون نورهم على قدر أعمالهم.. فمنهم من يُعْطَى نوره مثل الجبل بين يديه، ومنهم من يُعْطَى نوره دون ذلك، ومنهم من يُعْطَى نوره مثل النخلة بيمينه، ومنهم من يُعْطَى دون ذلك.. حتى يكون آخر ذلك مَنْ يُعْطَى نوره على إبهام قدمه.. يضيء مرةً، ويطفئ مرةً.. فإذا أضاء قدم قدمه، وإذا طفئ قام**»[1].

(١) التذكرة في الوعظ، عبد الرحمن القرشي، ص: ٣٠.

◆ أيها المتقي البار:

توزيع الأنوار على قدر بِرِّ الأبرار.. على قدر مناجاة الأسحار.. بحسب الإنفاق على وجوه الخير والحق في الليل والنهار.. يا طالب الأنوار يوم الظلمات، "شروق الأنوار على حسب صفاء الأسرار"[1]، فاشتر نورك الآن بتصفية الأحوال من آثار الأغيار.. وابذل الثمن.. فالثمن غالٍ.. فيا فوز الأبرار! فماذا أنت قائل.

واحذر من زيف الرياء، فإنه كوكبٌ قصير الأجل كقصر وقت السحر المحبب إلى الله-عزَّ جاره-:

ثوبُ الرِّياء يَشِفُّ عمَّا تحتَهُ ◆◆◆ وإذا التحفتَ به فإنَّك عاري

يا كوكبًا ما كان أقصرَ عُمْرَهُ ◆◆◆ وكذاك عُمْرُ كواكبُ الأسحارِ[2]

(١) الحكم العطائية، ص: ١٣.

(٢) البيت لأبي الحسن علي بن محمد التهامي (ت ٤١٦هـ) في ديوانه ص ٣٠٩.

المشهد الخامس

إنه العبور الخطير على جسر جهنم الدقيق الصغير
هل أعددت مركبتك القوية لتتمكن من تجاوز الخطر؟

إنها عقبة الفزع الأكبر: جسر جهنم.. أي شيءٍ أفظع من جسر جهنم وأشد هولًا:

وقام صاحب القلب المنيب من سجوده والبشر ما زال يملأ على فؤاده.. تُشْرِقُ أسارير وجهه، ويظهر في منظره ومخبره.. قام وقد شعر باجتياز الاختبار.. اختبار السجود الذي طالما أعدَّ له عدته.. فأكثر السجود في الدنيا، ورَاضَ نفسَه على الإخلاص، واجتناب النفاق والرياء.

وانتقل إلى امتحانٍ آخر عسير.. إذ أُوقِفَ الجميعُ على جهنم ومنادي الحق ينادي:

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [مريم:٧١]..

عندها جأر الناس بالبكاء، وامتلأت قلوبهم بالخوف.. كيف سَنَرِدُها..؟! وكيف يمكن الخروج منها وهي تكاد تميز من الغيظ؟!.. كيف تُطاق والقلوب تنخلع لمجرد رؤيتها من بعيد؟!.. فإنها إذا رأت المجرمين ﴿مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الفرقان:١٢]..فكيف وهي الآن في مكان قريبٍ؟! بل كلهم سَيَرِدُها.. وهم

من الورود عليها في يقين، لكنهم من النجاة منها في شك.. هكذا عرصات القيامة وأهوالها.. محطاتٌ مختلفة.. كلُّ محطةٍ أهوال مستقلةٌ بذاتها.. هاهو ذا جسر جهنم.. وهاهي ذي جهنم بذاتها..والناس بين ناج وهالك، ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم: ٧٢]، فلينظر كلُّ عبد إلى نفسه أنه إلى الظالمين أقرب أم إلى المتقين.

عن بكر المزني رحمه الله، قال:

لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] ذهب ابن رواحة رضي الله عنه إلى بيته فبكى، وجاءت المرأة فبكت، وجاءت الخادم فبكت، ثم جاء أهل البيت فجعلوا يبكون كلهم، فلما انقطعت عبرته قال: يا أهلاه، ما يبكيكم؟ قالوا: "لا ندري، ولكنا رأيناك تبكي فبكينا"، قال: "آية نزلت على رسول الله ﷺ، يُنَبِّئُنِي فيها ربي أني وارد النار، ولم يُنَبِّئْنِي أني صادر عنها"[1].

لكأنَّنا نرى صاحب القلب المنيب قد جثا وقلبه يرجف، وعيناه تذرفان من أهوال القيامة التي تصيبه.. لكأنَّه يئنُّ قائلًا: اللهم سلمني.. اللهم سلمني.. اللهم قد عرفتُ ذنبي فاغفر لي.. اللهم قد سترتَه عليَّ في الدنيا فأتمم عليَّ سترك في هذا الموقف..

(١) التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار، ابن رجب، ص: ٢٤٤.

أسل دموعك خشيةً وتعظيمًا واستعد له من الآن:

◆ إنه أدق من الشعر وأحدُّ من السيف.. مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ عليه خطاطيف وكلاليب:

ورأوا بأعينهم كيف سَيَرِدُون جهنم، ويا له من هول!.. إنه الجسر المنصوب على ظهر جهنم اللاهبة؟! ولكن أيُّ جسر؟!.. نعم «يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهري جهنم» يا له من جسر! لك أن تتساءل بخوفٍ ورعب عظيمين: أيُّ شيء هو جسر جهنم؟!

فإنه «أدقُّ من الشعر وأحدُّ من السيف»..ولكن أتدري أيا راجي النجاة ما هو الجسر؟ إنه «مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ عليه خطاطيف وكلاليب، وَحَسَكَةٌ مُفَلْطَحَةٌ لها شوكةٌ عَقِيفة[1] تكون بنجد يقال لها السعدان»..

أدق من الشعر.. فكيف يُعْبَر عليه؟! ربِّ سَلِّمْ..

أحد من السيف.. فكيف يُعْبَر عليه؟! رب سلم..

في ظلماتٍ حالكة تحيط بكم وبه.. لا تجتازها في طريقٍ واسعٍ.. فما بالك بجسرٍ هو أدق من الشعر وأحد من السيف؟! ربِّ سلم..

وآلات جهنم القوية الغاضبة، وزفيرها، وفحيحها المؤلم.. تعمل في جذب الناس وإسقاطهم إلى قعرها.. رب سلم..

---

(١) الحسك: نبات له ثمرة خشنة تتعلق بأصواف الغنم، الواحدة حسكة، والمفلطح: الذي فيه عرض واتساع، و عقيفة أي ملوية كالصنارة. ينظر: العين، ٣/ ٥٩، لسان العرب ٩/ ٢٥٤.

وانظر الكلاليب فإذا هي عبارةٌ عن حديدةٍ معوجة الرأس، أو عود في رأسه اعوجاج كثير مثل «شوك السَّعْدان، غير أنها لا يعلم قدر عظمها إلا الله»..وتأملت هناك عمل هذه الكلاليب، وتلك الأشواك فإذا هي تؤدي عملًا تضيف إلى رعب الصراط ورهبته رعبًا ورهبة؛ إذ "يحبس الله ﷻ بها من يشاء من خلقه..[يعوق من يشاء].. ويصرعه بكلاليب الصراط، حتى يهوي إلى النار.. حتى لا يعلم أينجو أم لا"[1]، وبعض هذه الكلاليب تنهش أجساد الناس «فتخطف الناس بأعمالهم.. مِنْهُمُ الْمُوبَقُ بِعَمَلِهِ، وَمِنْهُمُ الْمُخَرْدَلُ ثُمَّ يَنْجُو» تخردل جسده وتنهشه وتأكل منه.. وبعد المعاناة قد ينجو.

وَفِي الطَّرِيقِ صِرَاطٌ مُدَّ فَوْقَ لَظَى ... كَحَدِّ سَيْفٍ سَطَا فِي دِقَّةِ الشَّعَرِ

النَّاسُ فِي وِرْدِهِ شَتَّى فَمُسْتَبِقٌ ... كَالْبَرْقِ وَالطَّيْرِ أَوْ كَالْخَيْلِ فِي النَّظَرِ

سَاعٍ وَمَاشٍ وَمَخْدُوشٍ وَمُعْتَلِقٍ ... نَاجٍ وَكَمْ سَاقِطٍ فِي النَّارِ مُنْتَشِرِ

لِلْمُؤْمِنِينَ وُرُودٌ بَعْدَهُ صَدَرٌ ... وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ وِرْدٌ بِلا صَدَرِ[2]

يا أهل الموقف: إنه جسر جهنم.. فكيف تنام العين وهي قريرةٌ؟!

يا لدقته وحدِّته فمن يقدر على العبور عليه في هذا المسافة الهائلة العظيمة؟!..

يا لوحشة كلاليبه وخطاطيفه فمن ذا يصمد؟!..

(١) انظر: فيض القدير ٢/ ١٧١.

(٢) مجموع القصائد الزهديات، السلمان ١/ ٣٩٦.

يا للرعب الذي ينتاب الواقفين عليه وهم يرون بذهولٍ ورعبٍ وخوفٍ جهنم اللائحة بعضُ أهوالها للخلق من تحت الجسر!.. فمن ذا يجرؤ على المرور؟!.. والنبي ﷺ يعلق على المشهد قائلًا: «الزالون والزالات يومئذٌ كثير»..فأسِلْ -أيا حبيباه!- دمع العين إشفاقًا أن تكون منهم، قبل أن يأتي يومٌ لا ينفع فيه أن تكون الدموع دمًا.

وكيف تنامُ العينُ وهي قريرةٌ ... ولم تدرِ في أيِّ المكانين تنزلُ[1]

ولكن إذا كان هذا هو الجسر.. أفليس من المستحيل المشي عليه؟! بلى.. ولكن شيئًا واحدًا يُمَكِّنُ المرء من أن يعبره: إنه العمل الصالح.. إنها الاستقامة على أمر الله ﷻ هنا.. فمن استقام على الصراط المستقيم في دار الدنيا هان عليه المرور على الصراط في الآخرة.

◆ **ألا أيها الخلق:** من أعدَّ العمل في دنياه كان تجهيز مركبة سيره في أخراه بحسب عمله.. ذلك أن "يُسْرَ المشي على الصراط وعُسْرَهُ إنما يكون على قدر الطاعات والمعاصي.."[2].

لربما بدأ عندها صاحب القلب المنيب يحسب كم هي الحسنات التي جمعها في الدنيا لتكون وسيلة نقله عبر هذا الطريق المخوف الرهيب.. وعندها نسي -كبقية

(١) اغتنام الأوقات، عبد العزيز السلمان، ص: ٢٥.

(٢) انظر: فيض القدير ٢/ ١٧١، وفي الكتاب إشارة إلى أن معنى أدق من الشعر، وأحد من السيف ليس على ظاهره.

الخلق- كلَّ حبيبٍ له.. نسيَ كلَّ قريبٍ إلى قلبه.. هناك ذهل الخليل عن خليله.. وتذكر الإنسان يومئذٍ مجددًا ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ٢٣﴾ [الفجر:٢٣]..تذكر أنه كان يمكن أن يجمع ما يكفيه لتكون وسيلة نقله عبر الصراط مذلَّلةً مهيئة.. ثم لربما أعاد الذكرى وهو يعاين ذلك..

آه! ما للإنسان لا يعتبر.. ويأتيه كتاب ربه يخبره بأحوال المستقبل حيث أهوال الساعة فلا يزدجر.. لقد كان سماع ذلك في كتاب الله ﷻ كافيًا في حياته الدنيا لإلهابه وتهييجه وتذكيره بما أمامه من القدوم على أهوالٍ لا يخلص منها إلا بلطف الرحمن بسبب ما تقدم من أعمال[1].

يا من وصلتم الرحم وأديتم الأمانة أبشروا:

الأعمال الصالحة هي وسائط الصالحين.. للتقرب من رب العالمين.. والنجاة من جسر جهنم يوم الدين.. ومن أعظم العبادات المعينة على تجاوز هذا الامتحان، والوصول بسلام إلى الجنان: أداء الأمانة، وصلة الرحم.. إذ «ترسل الأمانة والرحم فتقومان جنبي الصراط يمينًا وشمالًا»[2]، يحاسب العباد عليهما.. فهنيئًا لمن وصل رحمه، وأدى أمانته..

وهما من أسباب وصوله إلى الجهة الأخرى ونجاته في موقف الخزي العظيم.. فتمسك بهما أيا راجي الفوز، توفق على الصراط المستقيم..

(١) انظر: فيض القدير ٢/ ١٧١.

(٢) مسلم (٣٢٩).

لكأنَّ صلة الرحم صارت موصلة لك إلى بر الأمان.. وأداء الأمانة أدى بك إلى حيث الأمان، والسكينة والاطمئنان.. وإنما الجزاء من جنس العمل.

◆ أيها القانتون:

صلوا الرحم.. لتصلوا على جسر جهنم.. وأدوا الأمانة لتفوزوا.. فالنجاة هنا أكبر مغنم..

◆ أيها القانتون:

هُيِّئَتْ لكم الدنيا فهل من مشمِّر؟.. وبقي في أجلكم فسحةٌ.. ألا مِنْ عاملٍ لآخرته يُعَمِّر؟.. فاسلكوا الصراط المستقيم في الدنيا.. ليستقيم لكم في الأخرى..

هذا هو الصراط، وهذه هي شدته:

والنبي ﷺ على الصراط ينادي متضرِّعًا: اللهم سلِّم.. سلِّم..

والأنبياء عليهم السلام على الصراط ينادون متضرعين: اللهم سلِّم.. سلِّم..

والملائكة عليهم السلام على الصراط ينادون مشفقين: اللهم سلِّم.. سلِّم..

الظلمات الحالكة.. إنه نور الله يُرْسَلُ إلى من تاب وعمل صالحًا:

وأول عقبةٍ على الصراط زلزلت الأفئدة: الظلمات الكالحة.. كيف يمكن العبور في هذه الظلمات؟

يا أنين الفؤاد من التفريط في الحياة الدنيا!.. يا غرقَ الخدين من دموع الندم على ضياع الأوقات في زمن العمل!..

وسرى التفكير المخيف بحقٍّ: كيف يمكن أن تجتاز شيئًا هذه حدَّته ودقَّته وظلمته وكلاليبه وخطاطيفه؟! كيف..؟!

وأصداء الجواب تتردد في الأسماع وفي الأفئدة: «على قدر أعمالهم».. فأقواهم وأوفرهم حظًّا من ازدلف إلى ربه ﷻ بعملٍ صالحٍ وصدق متاب.. ولكن الملائكة عليهم السلام تُطَمئن المؤمن، وتبشِّره بالجنة ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ..﴾ [الحديد:١٢].

يبشرونهم ليزداد اطمئنانهم.. كأنهم يقولون: لا تخافوا ولا تحزنوا.. إنْ هي إلا هذه العقبة وستجتازونها حتى تصلوا مستقركم في الجنان.. ستصلون.. وذلك ليخففوا من الرعب المحيط بهم.. مع شدة الخوف من الصراط.. حتى الأنبياء عليهم السلام.. الأنبياء عليهم السلام لشدة الخوف يرددون: رب سلِّم.. رب سلِّم.. لا يوجد أحد من الخلق يستطيع الكلام.. إلا الرسل عليهم السلام..

وهم عندما يتكلمون.. إنما يكون كلامهم دعاء.. اسمع لقول نبيك ﷺ يصف لك خطورة الوضع: «ولا يتكلَّم يومئذٍ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذٍ: اللهم سلِّم.. سلِّم».

وفي هذه الأثناء رأيتَ الكرامة لَحِقَتْ ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [ق:٣٣]..

أبشر يا من خشيت الرحمن بالغيب.. أبشر.. فإن الله ﷻ يخصك بنورٍ يسعى بين يديك وبيمينك..

◆ ولكن من ذا يبشره؟

إنهم أولياءه في الحياة الدنيا وفي الآخرة.. الملائكة عليهم السلام..

إنهم أصدقاء الصدق.. وإخوة البشائر الدائمة.. أرسلهم الوليُّ الودودُ.. الرحمنُ الرحيمُ.. فأسرجوا له نورًا يسعى بين يديه ومن خلفه.. أسرجوا له النور.. فيا راحة القلب وسكينته.. أتستطيع أن تصف الفرحة؟! إنه النور يُشرِقُ له ولكل مؤمنٍ عامل.. أشرق بين أيديهم وبإيمانهم..

فما أجمل المنظر!.. انظر إليهم ذلك اليوم ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾ [الحديد:١٢]..

أُضيئَتْ لك أيها المؤمن أنوارٌ ترشدك إلى الجانب المقابل عبر الصراط فوق هوة جهنم للنجاة.. وهذا من أعظم البشرى التي تُقذف في قلوب من اهتدى.. ممن تاب وآمن وعمل صالحًا.. فأحبه الله واصطفاه..

◆ أيا حبيباه:

بادر لحظاتك.. تدارك ساعاتك.. والهج إلى مولاك بنجواك ودعواتك.. وارفع يديك هاتفًا: اللهم اجعلني من المصطفين الأخيار.. أيها البار!.. نادِ في الأسحار:

أتيتُك راجيًا يا ذا الجلالِ ... ففرِّجْ ما ترى من سُوء حالي

عصيتُك سيدي.. ويلي.. بجهلي ... وعيبُ الذنبِ لم يخطر ببالي

إلى مَنْ يشتكي المملوكُ إلا ... إلى مولاه يا مولى الموالي[1]

(١) الأبيات لأبي إسحاق الإلبيري. ينظر ديوانه، ص: ١١٠.

أي طالب التوفيق، وخاطب الجنان: النور يضاء لك قبل مرور الصراط حنانًا وزكاة:

أيها القانت الأواب.. يا صاحب القلب المنيب:

انظر -إن استطعت النظر- إلى المنافقين والمنافقات لترى شدة الظلمات بين أيديهم.. وغلظ الظلمات حواليهم.. إنها تساوي ظلمة قلوبهم وسواد أعمالهم في الدنيا.. جزاءً وفاقًا.. فلما أيقنوا بالهلكة وحبوط الأعمال صرخوا مستنجدين بأهل الأنوار من زمر المؤمنين ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ۝١٣ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ۝١٤﴾ [الحديد: ١٣ - ١٤].

هنا تعلو صرخاتهم وهتافهم المملوء خوفًا وقلقًا باحثين عن النجاة ملتمسين لأنوار ذوي الأنوار، من الخيرة الأبرار.. لكن هيهات هيهات!..

أما أنتم أيها البررة القانتون: فكان لكل واحدٍ منكم نوره الخاص به....فيضاء النور لكم في أيمانكم.. كما أن قلوبكم أشرقت بنور الله في الدنيا.. فالجزاء من جنس العمل في الآخرة.. وانظروا: فقد غدت أيمانكم مصدرًا للنور.. كما استلمتم كتابكم باليمين انتشر نوركم باليمين.. ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ۝٣٦﴾ [النبأ: ٣٦]..

يا طالب التوفيق.. وفي جسر الرهبة العظيم، وبين أرتال الظلمة المحيطة ترى أنواركم متفاوتة، ومداها متباينًا.. فإنهم «يؤتون نورهم على قدر أعمالهم من المؤمنين من يضيء نوره من المدينة إلى عدن».. ومن المؤمنين من يكون نوره

أقل من ذلك..«حتى إن من المؤمنين من لا يضيء نوره إلا موضع قدميه، [وأدناهم نورًا مَنْ نوره على إبهام رجله فيُطفأ مرة ويُوقد أخرى]»[١]..

يا أيها العاملون: هنا ظهر المجد ولاح..

هنا تميز القول الكاذب من الأقوال الصحاح.. أشرعوا سفن العزم إن كنتم ترجون الفلاح.. ترى كيف ستكون أنوارنا في يوم الظلمة.. وما مداها في يوم المَراح..

يا للمجد! لمن واصل المسير إلى ربه بالإدلاج والغدو والرواح..

ليجد لنفسه في آخرته أعظم سراج وأرقى وسيلة للنجاح..

تراهم «يؤتون نورهم على قدر أعمالهم» وترى هناك -يا لوعتاه!-أدناهم نورًا من أوتي نوره على إبهامه يطفأ مرة ويقد مرة[٢].

◆ **تصوَّرْ ذلك وكرِّر الصورة في ذهنك، ثم اهتف معي بقلبٍ خاشعٍ ونفسٍ متضرعة:**

اللهم لا تخزني يوم القيامة.. إلهي بك أستجير.. فلا تخزني يوم البعث والنشور..

والهج إلى مولاك أن يهبك نورًا من نوره.. وأنت ترسل هذه الدعوات إلى رب البريات اخترق الحجب.. واستجلب بركتها نورًا يسطع بين يديك على الصراط.

نورك يسعى معك.. هل أعددته في الدنيا كما ينبغي؟

ومن صفات هذا النور الذي ينبعث من ذاتك: أنه ﴿يَسۡعَىٰ﴾ [التحريم:٨] كلما مشيت

---

(١) أخرجه الطبري ١/ ٥٦، والزيادة عند الحاكم (٣٨٢٦)، وصححه، ووافقه الذهبي، وانظر: تفسير ابن كثير ١/ ٥٦.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ١/ ٥٦.

مشى معك ومضى يضيء لك.. يرافقك كظلك في كلِّ خطوة تخطوها.. يبدد الظلام.. وعلى هداه تتقدم إلى الأمام.. وليس كالنور الثابت الذي كلما ابتعدت عنه زاد خفوته.. فهو ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾ [التحريم:٨].

أيها البار القانت: فماذا تريد أكثر؟ إذ ينطلق نورك الناتج عن الأعمال الصالحة في الدنيا لتستضيء به على الصراط، وليكون دليلًا لك إلى الجنة.. أفلا تعده كما ينبغي![1].

◆ **يا صاحب القلب المنيب! من جديد: لا تخف ولا تحزن، إنها الصحبة الدائمة، والود الصادق:**

ولرهبة الصراط -يا صاحب القلب المنيب- وخوف الورود على جهنم تأتي الملائكة من جديدٍ لتطمئنك وتبشرك، ونورك يسعى بين يديك وبيمنيك فتقول لك قبل أن تبدأ ساعة الانطلاق: ﴿بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢﴾ [الحديد:١٢].. هذا دأب هذه الرفقة الكريمة الناصحة.. أن تقذف في قلبك الطمأنينة.. وأن تملأ جوانحك بالسكينة.. ولعمر الله إن هذا لأعظم ما يحتاجه المرء في مواقف الأهوال.. وعند تغير الأحوال..

◆ **أيها المفلحون:**

خلودكم في الجنات هو النجاح العظيم الذي كنتم تطلبونه بعد النجاة من عقاب الله ﷻ..

---

(١) انظر: تفسير القرطبي ١٧/ ٢٤٤.

وتصور معي مشهد الأفراح الغامرات التي تنتاب المؤمنين حينها، ومشهد الحسرات القاتلة التي تعتري المنافقين والكافرين عندما يسمع الجميع تلك البشائر.

أجمل انطلاقة وأسرع تحرك:

فبعد جرعة الطمأنينة التي تلقيتها من رفقة الملائكة الكرام تبدأ ساعة الانطلاق: بسم الله مجراها ومرساها.

وهنا انطلق المؤمنون تحملهم أعمالهم، وتذلل لهم طريق العبور الخطير أنوارهم.. حيث ترى النار بفجائعها، وهولها، وظلمتها، وكلاليبها،.. في أمرٍ عظيم يسقط القلب منه بمجرد الرؤية.. فهنيئًا لأصحاب الأعمال الصالحة.. هنيئًا لأصحاب الأنوار اللائحة..

اللهم فاجعل لي لسان صدق في الآخرين..

انطلق المفلحون في مشهدٍ يملأ القلب بشرًا وفرحًا.. إذ رأيت «المؤمن عليها كالطرف، وكالبرق، وكالريح، وكأجاويد الخيل والركاب» «تجري بهم أعمالهم»..

«فيقال: انجوا على قدر نوركم فمنهم من يمر كانقضاض الكوكب، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشَدِّ الرَّحْل، ويَرْمُلُ رملًا.. فيمرون على قدر أعمالهم [حتى تعجز أعمال العباد.. وحتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زاحفًا]، حتى يمر الذي نوره على إبهام قدمه يَجُرُّ يدًا، ويعلِّق يدًا،

ويَجُرُّ رِجلًا، ويعلِّق رِجلًا فتصيب جوانبَه النارُ»[1].

لا إله إلا الله.. قل معي بخشوع: اللهم إني أسألك أن تجعلني من السابقين ذلك اليوم يا أرحم الراحمين..

والكلاليب تعمل عملها فيمن أُمرت بهم فـ«في حافتي الصراط كلاليب معلقةٌ مأمورةٌ بأخذ من أمرت بأخذه» تأخذ من هذا شيئًا.. وتنهش هذا فيوشك على الهلكة.. وتجُرُّ ذاك فيُرْمى من على الجسر إلى قعر جهنم.. فكم هي الأجساد المتساقطة في دركات الهاوية؟!.. على صرخات تصخ الأسماع.. وآلام تضاعف الأوجاع.. وتلهب الفؤاد الملتاع..

واشهد هناك المجد والسبق كله قد صارا خالصين للنبي ﷺ؛ إذ هو «أول من يجيز» على الصراط.. ثم يقف يدعو مع الرسل يومئذٍ: اللهم سلِّم.. سلِّم.. أجل! النبي ﷺ شفيع المذنبين.. ورحمة الله للعالمين.. في الحياة الدنيا وفي يوم الدين.. إنه هناك ما زال يدعو لأمته إذ هو «قائم على الصراط يقول: رب سلِّم.. سلِّم»[2]..

أبشر! فأنت من أوائل من يجيز الصراط..

ولكن ما النتائج التي تزلزل القلب المائج في ذلك المشهد المثير؟

وكما أن النبي ﷺ كان أول من جاوز الصراط كذلك كانت أمته «أول من يجيز..»..

---

(١) مسلم (٥٠٣)، الحاكم (٨٧٥١).

(٢) مسلم (٣٢٩).

وكان صاحب القلب المنيب ممن كرمهم الله ﷻ بالانتماء لهذه الأمة الخاتمة.. فقد مَرَّ مع الأوائل في يوم الأهوال.. مرَّ والخلق ينظرون إليه باغتباط.. وما له ألا يمر وقد اجتاز عقبة الدنيا؟!.. فكان جزاؤه أن تحمله أعماله، ويسير به نوره ليجتاز عقبة الآخرة.. لقد أعد نفسه لهذه المشاهد أيما إعداد.. وتزود لسفره بأحسن زاد.. واستعان على أمره بربه الكريم الجواد..

◆ **اقتحَمَ عقبة الدنيا:** فأطعمَ وصلى وصام وكان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة.. وكان ممن حافظوا على القيام.. وبرحمة الله ﷻ اقتحم عقبة الآخرة.. وإن كان قد رأى أفضل منه ممن سبقه بأسرع منه.. لكنه اجتاز.. وإنا لنرجو أنه اجتازها بأسرع من طرف العين.. ذلك بما كان يعمل في الدنيا.. ويتقي الآثام..

◆ **أيا حبيباه!** فهل من مبادر بالأعمال والطاعات.. ليجد نوره في ذلك اليوم.. يَصِلُ به عبر الصراط إلى الجنات؟.. هل من مبادر؟

وانتهى المشهد العظيم.. وترتبت عليه النتائج التالية: لم يخرج مَنْ عَبَرَهُ عن ثلاث حالات:

إما أنه «ناجٍ مُسَلَّمٌ» لله فرحتُه! ألا تهتفُ معي: اللهم إني أسألك من فضلك ورحمتك.

أو «**ناجٍ مخدوشٌ**».. ألا تهتفُ معي: اللهم إني أعوذ بنور وجهك..

وإما أنه يا لوعتاه! «**مكدوسٌ في نار جهنم**».. اهتف أيا حبيباه! أعوذ بنور وجهك.

بعضهم سلم فيا فوز الغانمين، يا غنيمة المفلحين!.. ويا فرح المخلِصين المخلَصين!..

وبعضهم اجتاز ولكن بعد أن خدشته كلاليب جهنم، ووخزته حَسَكها، وامتدت إليه أشواكها.. «حتى يمر آخرهم يسحب سحبًا»، ولكنه نجا آخر المطاف.. وحمد الله على أن جعله بذلك أفضل العالمين.. إي وربي!.. فمن نجا من جهنم هل يظن أن أحدًا أفضل منه؟

وقول الجليل.. الذي طالما سمعه الأنام.. يسبل عليهم الأمان.. يسمعونه بجمالٍ وترتيل ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وبعضهم كُرْدِسَ فسقط في نار جهنم.. فيا ضيعة الأعمار!.. ويا ثقل الأوزار!.. ويا حسرةً تبقى مدى الأعصار!.. ولا حول ولا قوة إلا بالله.. وحسبي الله ونعم الوكيل.. على الله ربنا توكلنا..

◆ **يا طالب رحمة الرحمن:** دعِ الغافلين في غفلاتهم، واهتف:

إلهي! لئن أبعدتني أو طردتني ◆◆◆ فمن ذا الذي أرجو ومن ذا أُشَفِّعُ؟

إلهي! لئن جلَّتْ وجَمَّتْ خطيئتي ◆◆◆ فعفوك عن ذنبي أجلُّ وأوسعُ

إلهي! فلا تقطع رجائي ولا تُزِغْ ◆◆◆ فؤادي؛ فإني خائفٌ متضرِّعُ

إلهي! أذقْني بردَ عفوك يوم لا ◆◆◆ بنونَ ولا مالٌ هنالك ينفعُ[1]

(١) الأبيات لعلي بن أبي طالب ﷺ. ينظر ديوانه (ص: ٩٩).

المشهد السادس

الأنوار الكاشفة، والأنوار المنطفئة
نورك البهيُّ يسعى..
والحصاد المرُّ لمن نكث وأكدى

انظر الحصاد المر: منافقٌ لا نور له، ومنافق أُعطي النور فمضى ثم خُدع فانطفأ نوره فهوى:

في هذا الموقف العصيب والأهوال المتلاحقة ترى الناس قد غشيتهم يوم القيامة الظلمات.. كلٌّ بحسب ظلمة قلبه في الدنيا.. ثم أعطاهم الله ﷻ نورًا يمشون فيه.. بحسب أنوار قلوبهم في الدنيا.. فيعطي الله ﷻ المؤمنين نورًا يوم القيامة على قدر أعمالهم يمشون به على الصراط، وأما الكافر وبعض المنافقين فيُتْركون بلا نورٍ، بل يحاولون أن يستضيئوا بنور المؤمنين ولا يعطون شيئًا من نور.. فقد كانوا لا نور لهم في الدنيا.. إنهم هم خُلَّصُ المنافقين..

ويُعْطَى بعض المنافقين أيضا نورًا خديعةً لهم.. ولكن الله ﷻ ﴿خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]...

هاهم أولاء يمشون ببصيصٍ من نورٍ معهم.. فبينما هم يمشون إذ أطفأ نور المنافقين، وسلب المنافق نوره لنفاقه.. إنه ضوء الحق أُعطِي لهم ابتداءً كلما أضاء لهم مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم قاموا.. كما كانوا يفعلون مع نور الإيمان، وقوة

البرهان في الدنيا.. فهكذا هم اليوم -يوم الحاقة-..

عندها يصيحون.. ويصرخون.. ويستغيثون.. وهل ينفع شيئًا صياحهم.. وهم لم يُعِدُّوا شيئًا في دنياهم.. إلا الخداع؟

فهاهم أولاء يخادعون.. وتكون نتيجة خداعهم ذاك:

منهم من يُكَرْدَسُ في النار من فوره.

ومنهم من تخطفه الكلاليب والخطاطيف فتهوي به.

وترى بعضهم وقد طمس الله ﷻ على أعينهم فاستبقوا الصراط فمن أين يبصرونه حتى يجاوزوه؟!

بل هم في هويهم إلى حفرة النار منكسون..

◆ **ومنادي الحق ينادي:**

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [يس: ٦٦]..

ومنهم من مسخه الله ﷻ على مكانته فتراه متحيرًا مترددًا.. ما أشبه حال هذا بحاله في الدنيا من التيه والضياع والتذبذب!.. قد أكله عذاب الخوف والإشفاق من الوقوع.. والدموع السوافح لا تغني شيئًا عن القلب الجزوع.. فبينما هو كذلك إذ خرَّ على وجهه من علٍ.. ومنادي الحق ينادي: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [يس: ٦٧]..أقعدناهم فلا يستطيعون أن يمضوا أمامهم ولا يرجعوا وراءهم..

صاروا كالمحاصرين في أجسادهم.. لا يستطيعون حراكًا.. ولا يقدرون فكاكًا.. حتى وقعوا ولا وقعة أسوأ منها.. لكأن الهاتف يبكتهم قائلًا:

﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾ [الذاريات: ١٤].

◆ يهتف صاحب القلب المنيب مع بقية المؤمنين وهم يشهدون ما حدث للمنافقين.. يهتفون:

ترى المفلحين يهتفون وهم يسيرون على الصراط:

﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [التحريم: ٨]

﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ يقولون ذلك خشية أن يسلبوا نورهم كما سُلِبَه المنافقون.. فَهُمْ في طلب فضل ربِّهم راغبون.. ويواصلون الدعاء.. فينادون ﴿وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ﴾..يكررون ذلك وهم يرون حال المنافقين الذين أُطفئت أنوارهم.. فَهُمْ يتذكرون بعض ما وقعوا فيه من ضعفٍ وتقصيرٍ وخطيئةٍ في حياتهم فيخشون أن يؤاخذوا بذلك.. فيعيدون الهتاف: ﴿وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ﴾..وأخيرًا تتم لهم البشرى.. ويتم الله ﷻ لهم نوره فيصلون إلى بر الأمان، ومكمن الإحسان.. بفضل الرحمن -عزَّ جاره-.

هذا يوم له ما بعده فـ ﴿لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ﴾ [التحريم: ٨] فيه.. اهتف أيا حبيباه! **اللهم لا تخزني يا أرحم الراحمين.**

إنه النور في الآخرة.. طلبته -أيا راجي التوفيق- في الدنيا بالتوبة النصوح التي كان لك فيها دمع مسفوح، وقلبٌ عن المعاصي جموح..

إنه التوفيق في الآخرة وعدم الخزي يأتيك أحوج ما تكون إليه.. يأتيك بسبب التوبة النصوح التي يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجَنان، ومهاجرة سيء الخلان.. هذا طوق النجاة من النيران.. هذا سر الفوز برضا الكريم المنان.. هذا أعظم معين على الفوز في الامتحان.. هل يعي المنافقون هذا أم يعدونه محض هذيان؟.

أيا طالب التوفيق: اشهد موقف الخيبة والأحزان الذي وقع فيه المنافقون:

وأَطَلَّ صاحب القلب المنيب بعد أن اطمأن قلبه المرتجف.. واستبشر بفوزه واجتيازه على الصراط.. أَطَلَّ على مشهد الخيبة والخسران.. مشهد المنافقين عندما يهتفون بالمؤمنين المنطلقين ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد:١٣]..

يقول المنافقون الذين أُعطوا نورًا ثم أطفئ: انتظرونا نستضيء من نوركم.. الآن فقط أدركوا عظمة نور الإيمان.. لكن بعد فوات الأوان.

ويقول الذين لم يعطوا نورًا بالأصل بكل حسرة وألم: لا تذهبوا وانتظرونا.. أمهلونا وأخرونا حتى نعطى نورًا أو نقتبس من نوركم.

يا لمشهد الخيبة والخسران، والذلة والهوان!.. بقي المنافقون في الظلمة لا يبصرون مواقع أقدامهم.. وبدلًا من أن يلتمسوا نورهم من الله ﷻ قاموا يطلبونه من المؤمنين فقالوا: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد:١٣] فيكون الجواب قاطعًا للخطاب..

محيرًا لمن اتبع هواه وترك سبيل من أناب ﴿قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ﴾ [الحديد:١٣].

تصيح بهم الملائكة: ﴿قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ﴾ [الحديد:١٣]..

ويصيح بهم المؤمنون: ﴿قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ﴾ [الحديد:١٣] ارجعوا إلى الموضع الذي أخذنا منه النور، فاطلبوا هنالك لأنفسكم نورًا، أما أنوارنا.. فهي أعمالنا.. بنيناها في دنيانا..

وطلبنا رحمة الرحمن الرحيم قبلها وبعدها لأنفسنا.. أيها المنافقون: ارجعوا وراءكم.

كبت ذلك الجواب ألسن الخطاب.. وعاد بالأحزان على كلِّ مَنْ بالمعاد استهزأ أو ارتاب..

◆ **قال لهم المؤمنون والملائكة:** "هلَّا طلبتم النور من الدنيا بأن تؤمنوا وتطيعوا، وتتبعوا سبيلنا.. هلَّا وفَّرتم لأنفسكم نورًا في وقت دنياكم لتجدوه هاهنا.. يا خيبتكم لقد ضيعتم الفرصة!.. حتى بؤتم بعاقبتها غصة.. يا لندامة من ضيع أيام عمره، وفرط في العظيم من أمره!

ومن ضيَّع التقوى وأهملَ أمرَها ◆◆◆ تغشَّته في العُقبى فنونُ النَّدامةِ[1]

(١) مجموع القصائد الزهديات، السلمان ١/ ٢١١.

◆ أما المؤمنون المباركون فقد أعدَّوا لأنفسهم ذلك النور، فملأ أنفسهم الفرح والنشوة والسرور..

طالما تعفَّرت قدم الواحد منهم وهم يمشون إلى بيوت الله ﷻ.

لطالما خاض المبارك منهم في ظلمات الليالي ساعيًا إلى المساجد لأداء صلاة الفجر بقلبه المخبت الأوَّاه.

وفي الطريق إلى صلاة الفجر كانوا يستحضرون مثوبة ربهم ﷻ التي وعدهم بها النبي ﷺ في قوله:

«بشروا المشَّائين في الظُّلَم إلى المساجد بالنور التامِّ يوم القيامة»[1]..

الله! الله!

وقد استقرَّ في فؤاده ما أخبره به النبي المصطفى ﷺ بقوله:

«والصلاة نور»[2]

وما بشَّر به حين قال ﷺ:

«ولكلِّ آية نور يوم القيامة»[3]

فكان هجيراه السعي للصلاة تلو الصلاة.. وتلاوة آيات الله.. آناء الليل والغداة..

---

(١) أبو داود (٥٦١). قال الذهبي: على شرط الشيخين، وقال الأرناؤوط: حسن لغيره.

(٢) مسلم (٢٢٣).

(٣) الحاكم (٢٠٨٧)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

لطالما لهجت ألسنتهم.. تُرَدِّدُ ذكر ربهم ﷻ.. يخرج النور من شفاههم:

«اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِي بَصَرِي نُورًا، وَفِي سَمْعِي نُورًا، وَعَنْ يَمِينِي نُورًا، وَعَنْ يَسَارِي نُورًا، ومن فَوْقِي نُورًا، ومن تَحْتِي نُورًا، وَمن أَمَامِي نُورًا، وَمن خَلْفِي نُورًا، وفي عَصَبِي نورًا، وَفِي لَحْمِي نورًا، وفي دَمِي نورًا، وَفِي شَعَرِي نورًا، وَفِي بَشَرِي نورًا، وَعَظِّمْ لِي نُورًا»(١).

هاهم اليوم يُبَشَّرون بالنور التام في هذا اليوم أحوج ما يكونون إليه، فما أنقى ذلك النور، وما أصفاه!

فهاهو ذا نورهم تامٌ لهم في هذا اليوم.. يوم القيامة.. الله! الله!

◆ **أيا أنس الفؤاد:** لا تقف وأنت تقرأ هذا عاجزًا.. وارفع يديك طالبًا خيرًا ناجزًا: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، حتى يتم علينا نورك يا أرحم الراحمين.

صاح المؤمنون والملائكة بالمنافقين: ﴿ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗاۚ﴾ [الحديد:١٣].. فيا لها من وقفة الهلاك إن وقفوا.. ورجعة الهلاك إن رجعوا!..

﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ﴾ [الحديد:١٣] مما يلي المؤمنين، حيث نور المؤمنين والجنة، ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ١٣﴾ [الحديد:١٣] حيث ظلمة المنافقين

(١) البخاري (٥/ ٢٣٢٧)، مسلم (١٩١).

وجهنم.. اللهم إني نعوذ بك من موقف الخزي المبين..

تابع المشهد، وانظر الفوز الأحمد: عوامل الهلاك في الدنيا هي عوامل الهلاك في الآخرة:

عند ذاك ينادي المنافقون المؤمنين.. يستجدونهم آخر استجداء.. مشفوعًا بالعويل والبكاء:

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ [الحديد: ١٤] في الدنيا نصلي مثل ما تصلون، ونتصدق كما تتصدقون.. ألم نكن معكم ونفعل مثل ما تفعلون؟ فلِمَ بقينا وأنتم تعبرون.. انتظرونا واشفعوا لنا أيها الفائزون..

اشهد الموقف المؤلم المخزي للمنافقين، والمؤمنون يبكتونهم على ما حدث منهم في الدنيا.. فقد أجاب المؤمنون على المنافقين:

﴿بَلَىٰ﴾ كنتم معنا.. بلى قد كان ذلك منكم في الظاهر، كنتم معنا..

ولكن أحقًّا كنتم معنا أم هو الخداع الذي تظنون أنكم به صرتم عباقرة؟

بلى كنتم معنا، ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ﴾ أخذتم بعوامل الهلاك في الدنيا فأهلكتكم في الآخرة:

فـ﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحديد: ١٤]: استعملتموها في الفتنة، وأهلكتموها بالنفاق، وبالمعاصي، وبالشهوات، واللذات، ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالنبي ﷺ الموت، ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالمؤمنين الدوائر، ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالتوبة تظنون أنكم يمكن أن تنالوها في أي وقتٍ..

﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ فلم تعزموا ولم تختاروا الخيرة الحاسمة حتى مضى عمركم وأودى بكم بغيكم ولعبكم..

أيها المنافقون: لقد تربصتم ﴿وَٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ [الحديد: ١٤] فشككتم في التوحيد والنبوة والبعث والجزاء، ﴿وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ﴾ [الحديد: ١٤] غرَّتكم الأباطيل وطول الأمل.. غرَّكم نفاقكم وتذبذبكم وطمعكم..

◆ **أيها البار القانت:**

كم هو موقف ممتعٌ لك ولإخوانك المؤمنين أن تبكت المنافقين الذين كانوا يضحكون منكم، وتقول لهم:

◆ **أيها المنافقون:** لقد غرَّكم ما كنتم تتمنونه من ضعف المؤمنين ونزول الدوائر بهم..

أيها المنافقون: ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ١٤﴾ [الحديد:١٤]: خدعكم الشيطان بهذه الأماني الكاذبات والخيالات والفارغات.. وغرتكم الدنيا بما كان لكم فيها من قوَّةٍ ونعمةٍ وتمكينٍ ونِعَمٍ سابغاتٍ.. فظننتم أن ذلك يغني عنكم يوم القيامة، أو يبعد عنكم شبح العاديات..

وغركم إتيانكم محارم الله ثم قولكم: ﴿سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف:١٦٩].. فهل هي إلا أمانٍ كاذبات؟!

هل تتذكر هنا أيها البار القانت: قول بلال بن سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الغرور: "**ذكرُك حسناتِك ونسيانُك سيئاتِك غِرَّةٌ**"(١)..؟ كانوا يذكرون حسناتهم وينسون سيئاتهم.. وذاك هو الغرور.

(١) حلية الأولياء ٥/ ٢٢٣.

◆ **ولعلك حينها أيها البار القانت تقول لهم**: كم كنا نقول لكم:

"إن للباقي بالماضي معتبرًا، وللآخر بالأول مزدجرًا، والسعيد من لا يغتر بالطمع، ولا يركن إلى الخُدَع، ومن ذكر المنية نسي الأمنية، ومن أطال الأمل، نسي العمل، وغفل عن الأجل"(١)..

◆ **أيها المنافقون**: كنا نقول لكم ذلك.. ولكنكم قابلتم ذلك بالضحكات الظاهرة والمستترة..

عندها ختمتم خطابكم لهؤلاء الهلكى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ﴾ أيها المنافقون ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ .. لا يقبل منكم بدلٌ ولا عوضٌ ولا نفسٌ أخرى.. ينبغي أن تيأسوا من النجاة.. فإن ﴿مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ﴾ هي مقامكم ومنزلكم، و﴿هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾ أولى بكم من كلِّ شيءٍ.. تتولى مصالحكم، وتملك أمركم، وتدبر شأنكم.. بأيديكم طلبتموها.. فيا خسارة من تملك النار أمره ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾ [الحديد:١٥]!

وهكذا نجوت من مزلة الصراط، وظلمة الطريق.. ورأيت مصير المتمردين على الله ﷻ، الساخرين من المؤمنين في الدنيا.. بل تمتعت بنجاتك وتبكيتهم كما كانوا يستمتعون ويضحكون وهم يبكتونك في الدنيا.. كنت تقول لهم حينها: ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا﴾ [التوبة: ٨٢].. فقد مضى وقت ضحكهم القليل.. وآن وقت بكائهم الكثير.. فماذا تفعل إلا أن تحرِّك لسانك متعجِّلًا بذكر الله ﷻ وحمده وتسبيحه: الحمد لله الذي هداني لهذا وفضلني على كثيرٍ من خلقه.

(١) أدب الدنيا والدين، للماوردي، ص: ١١٧.

فهرس الموضوعات

السلسبيل المورود قصة رحلة الخلود (٢) ٤

مقدِّمة ٥

(تَلقِّي السعادة والإكرام الأعظم) ٥

المشهد الأول: استفق! إنه يوم الفزع الأكبر ٨

أيا صاحب القلب المنيب: ٨

«هذا يومكم الذي كنتم توعدون» ٨

أمطارٌ لا تنبت البذور والأشجار بل تنبتُ الأجساد وتعيد الأعمار: ٨

نفخةٌ واحدة.. لتعود الأرواح إلى الأبدان، وتخرج من أجداثها صاعدة: ١٠

انظر إليهم يخرجون من الأجداث.. أخرجت الأرض أثقالها: ١٢

صيحات الفزع من الخارجين..﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١﴾ [القيامة: ١١] حنانيك يا يومَ الخائفين: ١٤

ولكن ما حال ذي القلب المنيب، وكيف يكون بعثه السهل الرحيب؟ ١٧

يا صاحب القلب المنيب: انظر حواليك حيث الوجوه الضاحكة للبشرى.. إنه الفزع الأكبر، فالعوالم تتبدل والنفوس حيرى: ١٩

من جديدٍ: مَنِ القادم؟ اللقاء بأطهر المخلوقات.. ترى من يكونون؟! ٢٠

انظر إلى غيرك لترى نعيمك ما بلغ: ٢٢

الشمس تدنو من العباد فتصهرهم.. فأين المفر للخلائق بَرِّهِم وفاجرهم؟ ٢٤

في ذلك الجو اللاهب: أبشر.. أتحت ظل عرش الرحمن؟! ٢٦

تحت ظل عرش الرحمن: أي نعيمٍ وأي مزية! ٢٨

أيا جليس المساجد: ٢٩

شابت الولدان، وذابت الأجفان: إنه قادم الهلاك.. كيف الفكاك منه؟.. كيف الفكاك؟ ٣٠
أَبْشِرْ.. هاهي الجنة تقترب.. مَتِّعْ نظرَك.. إنها أمامك: ٣٢
ترقب الأمر الإلهي: فقد صدر الأمر الإلهي بقسمتهم إلى قسمين: السعداء والأشقياء ٣٣
الكسوة والستر.. يوم يُحَصَّلُ ما في الصدور.. يوم تبلى السرائر: ٣٦
أي حبيب الجنة ومحبها: تصور! النبي ﷺ قلقٌ عليك.. وانظر كيف بلغ حبه لك: ٣٧
المشهد الثاني: يا ربي أرحني فلتشرق الأرض بنور ربِّها ٤١
هل سمعتَ قائلًا يقول: يا رب أرحني ولو إلى النار: ٤١
الأنبياء الذين بعثوا لإنقاذ غيرهم يقولون: «نفسي.. نفسي»: ٤٥
الشفاعة العظمى، والدرجة الأسمى للسيد المصطفى والرسول المجتبى ﷺ: ٤٧
من النعيم العظيم في موقف الخطب الجسيم: الانتماء إلى أمة محمدٍ ﷺ: ٥٠
النبي ﷺ يبحث عنك..يتفقد أمته بين الجموع، ويبشر كلَّ صادق محب ولوع: ٥٢
أيها الساجدون! أيها المتطهرون! أبشروا أنتم المعروفون عند النبي ﷺ المقدَّمون بين يديه: ٥٢
يا صاحب القلب المنيب: فلتشرق أنوارك الوضاءة.. فقد أشرقت الأرض بنور ربها لفصل القضاء: ٥٥
شيءٌ عظيمٌ.. وخطبٌ جسيمٌ.. تعرضون لا تخفى منكم خافية: ٥٦
الأنبياء والرسل عليهم السلام يشهدون.. لا تسل حينها عن الهلع والفزع: ٥٩
وحانت ساعة العرض على الجبار.. ثم إلى جنة أو نار: ٦٤
المشهد الثالث: وُضع الكتاب.. وبدأ الحساب ٦٥
بداية الحساب.. واحر قلباه: من يكون صاحب الزلفى من ربه.. من له حسن مآب؟ ٦٥
أيها الخلق: الوزن يومئذٍ الحق.. الوزن يا أيها الناس.. ألا هل من يدرك نفسه من الأذكياء الأكياس؟ ٦٧
ساعة تطاير الكتب: نفسٍ قلقة.. ونبضٌ فزعٌ.. أو روحٌ متشوفةٌ: ٧٠
من صور الحساب ستر جميل.. وعطاء جزيل من رب جليل: ٧٢

إنها الرحمة، والكرم الإلهي: فيا شوق لا تبعد، ويا دمع فض وزد: ٧٤
دورك الآن.. هل تعلن راية الفرح: تعالوا.. تعالوا.. فاقرؤوا كتابيه: ٧٥
لا تبعد عن المشهد: ٧٦
من صور الحساب: نكران وجحود تسقطه الجوارح الشهود: ٧٨
يا لإشراق وجهك!.. إذ الناس خاشعة أبصارهم، ترهقهم القترة والذلة: ٨٠
أيها الناس: انظروا إلى هؤلاء لتعرفوا في وجوههم نضرة النعيم: ٨١
يا أبيض الوجه: حسنٌ بعد حسن.. وجمال بعد جمال.. إنها إشراقة فالق الإصباح يظهرها الله عليك: ٨٢
المشهد الرابع: أسبل الدمع الهطال وأنت تشاهد صور الحساب في يومٍ شديد الأثقال ٨٤
أيا حافظ القرآن! خذ هذه الهدية.. ونل هذا التميز: ٨٩
حبيب يفرح بأخذ حسنات حبيبه: ٩١
انظر هناك: يا لعظمة التكريم على الملأ -ما أسهل سببه لو كانوا يعقلون-: ٩٣
تكريمٌ عظيم: أنت تشهد على سائر الأمم: ٩٤
انظر موقف الدلال: عملتُ ذنوبًا لم تعرضوها عليَّ: ٩٥
ليتبع كلُّ قومٍ ما كانوا يعبدون.. فمن تعبد أيا صاحب القلب المنيب؟: ٩٧
هنيئًا لك بتذوق لذة السجود لله في هذا اليوم: ١٠٠
المشهد الخامس: إنه العبور الخطير على جسر جهنم الدقيق الصغير ١٠٤
إنها عقبة الفزع الأكبر: جسر جهنم.. أي شيءٍ أفظع من جسر جهنم وأشد هولًا: ١٠٤
أسل دموعك خشيةً وتعظيمًا واستعد له من الآن: ١٠٦
إنه أدق من الشعر وأحدُّ من السيف.. مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ عليه خطاطيف وكلاليب: ١٠٦
يا أهل الموقف: إنه جسر جهنم.. فكيف تنام العين وهي قريرةٌ؟! ١٠٧
يا من وصلتم الرحم وأديتم الأمانة أبشروا: ١٠٩

الظلمات الحالكة.. إنه نور الله يُرْسَلُ إلى من تاب وعمل صالحًا: ١١٠
أي طالب التوفيق، وخاطب الجنان: النور يضاء لك قبل مرور الصراط حنانًا وزكاة: ١١٣
يا صاحب القلب المنيب! من جديد: لا تخف ولا تحزن، إنها الصحبة الدائمة، والود الصادق: .. ١١٥
أجمل انطلاقة وأسرع تحرك: ١١٦
أبشر! فأنت من أوائل من يجيز الصراط.. ..... ١١٧
ولكن ما النتائج التي تزلزل القلب المائج في ذلك المشهد المثير؟ ١١٧
وانتهى المشهد العظيم.. وترتبت عليه النتائج التالية: لم يخرج مَنْ عَبَرَهُ عن ثلاث حالات: ١١٨
المشهد السادس: الأنوار الكاشفة، والأنوار المنطفئة ١٢٠
نورك البهيُّ يسعى.. ..... ١٢٠
والحصاد المرُّ لمن نكث وأكدى..... ١٢٠
انظر الحصاد المر: منافقٌ لا نور له، ومنافق أُعطي النور فمضى ثم خُدع فانطفأ نوره فهوى: ١٢٠
يهتف صاحب القلب المنيب مع بقية المؤمنين وهم يشهدون ما حدث للمنافقين.. يهتفون: ١٢٢
أيا طالب التوفيق: اشهد موقف الخيبة والأحزان الذي وقع فيه المنافقون: ١٢٣
أما المؤمنون المباركون فقد أعدَّوا لأنفسهم ذلك النور، فملأ أنفسهم الفرح والنشوة والسرور.. ..... ١٢٥
تابع المشهد، وانظر الفوز الأحمد: عوامل الهلاك في الدنيا هي عوامل الهلاك في الآخرة: ١٢٧
فهرس الموضوعات: ١٣١

بصائر المعرفة القرآنية

٢٥

سلسلة فقه القدوم على الله

السلسبيل الموروث قصة رحلة الخلود

الكتاب الثاني

إنها الساعة تلقي السعادة والإكرام الأعظم

في عالَمٍ يَمُورُ بالأحداثِ والمُجْرَيات تِباعًا، ويتفنَّنُ الشَّيطانُ وقَبيلُهُ في عرضِ أباطيلِهم، ويُجْلِبون بِخَيلِهم ورَجلِهم للإيقاعِ في صفوفِ المؤمنين، والإيقاعِ بجُموعِ المُوَحِّدين في مهاوي الرَّدى وصحراء التِّيهِ المعاصر، وفي سعيٍ حثيثٍ دائبٍ غيرِ ممنونٍ يقدِّمون بِضاعتَهم الفاسدةَ المفسدةَ على صُوَرٍ تختلبُ القلوبَ، وتسحرُ الألبابَ سواء بما تَخُطُّهُ أقلامُهم المسمومةُ، أو تَبُثُّهُ قنواتُ عُهْرِهِم مِنَ البرامجِ المَلْغُومة... في ظِلِ هذا الزَّخَمِ المَهْولِ للإنتاجِ الأدبيِّ والإعلاميِّ الإبليسيِّ الدَّجَّاليِّ، كان لا بُدَّ من مدافعة الحرفِ بالحرفِ والكلمةِ بالكلمةِ... مِنْ هنا جاءت فكرةُ هذا العملِ: (سلسلةُ رحلةِ الخُلُود) التي صدرت على هيئة مِنَ الكتابةِ فريدة في بابها، معجبة في سَرْديَّةٍ أحداثُها أخَّاذةٌ بتصويرِها وتَجْسيدِها للأحداثِ المستقبليَّةِ التي سيَشهدُها واقعًا شابٌّ أحبَّ اللهَ عز وجل بِكُلِّيَةِ قَلْبِهِ، فأحاطه اللهُ عز وجل بوافرِ عنايتِه، ولَاحَظَهُ بِلُطْفِ حنانِه في جميع محطَّاتِ حياتِه الدُّنيويَّةِ والأخرويَّةِ.

(سلسلةُ رحلةِ الخُلُود) تصويرٌ بديعٌ لإرهاصاتِ الانتقالِ من هذه الدَّارِ إلى دارِ المآلِ والقرارِ، ابتداءً بالموتِ ومفارقةِ الرُّوحِ الجسدَ، ثُمَّ الحياةِ البَرزخيَّةِ، ثُمَّ ما يتلو ذلك من مشاهدِ اليومِ الآخِرِ، وقيامِ السَّاعة، ودخولِ الجَنَّةِ وما فيها مِنْ صُوَرِ النَّعيمِ المُقيمِ واللُّطفِ الكريمِ.